

مجلد الموت

وجدان الحامدي

مجلد الموت

رواية

وجدان الحامدي

المقدمة

في قلب قلعةٍ مظلمة، محشوةٍ بأغراضٍ مُكدّسة كأنها شظايا من عصورٍ منطفئة، وقف ناكازي حائرًا أمام المجلّد الأسود. كان يشعر بأن الأرض نفسها تُحكم قبضتها على عقله، كأنها سجنه الأول والأخير، وكأن كل حجر في القلعة يضغط على صدره ليذكّره بأن الحقيقة ليست مجرد كلمات تُقرأ، بل لعنة تُحمل.

كان يبحث عن قبرٍ يليق بهذا المجلّد...

قبر يستطيع أن يُخفي تاريخًا لا يجب لأحد أن يعرفه.

تاريخًا حتى هو لا يعرف متى و أين سينتهي، أو متى ستفيض لعنته على من يلمسه.

لقد كان ناكازي معلّقًا بين خيارين:

أن يبقى شامخًا أمام سطوة المجهول، كما يفعل الساموراي الذين ينحدر من إرثهم...

أم يصير صاغرًا لبراثن الزمن القذر، الزمن الذي يلتهم كل شيء بصمتٍ جائع.

كان يدرك أن حامل المجلد القادم قد لا ينجو مثلما نجا هو.

فالسر أثقل من أن يُحمل، وأعمق من أن يُفهم.

وكأن الكلمات نفسها تنزف على الصفحات، وتصرخ من داخلها، وتستجدي من يدفنها قبل أن تبتلع من يقرأها.

كان ناكازي ابن ثقافتين، أب كندي لم يعش طويلاً، وأم يابانية أورثته صمت الجبال وصرامة الساموراي.

ولقد تربّى في منزل ياباني تحكمه التقاليد، لكنه حمل في دمه شيئًا من العناد الغربي الذي لا ينحني بسهولة.

كان رجلاً لزوجةٍ صبورة، وأبًا لابنتين تحملان في ملامحهما امتزاج عالمين... لكنهما لا تعلمان أن ظلال هذا المجلّد تطال مستقبلهما أيضًا.

في شخصيته، كانت أنفاس الساموراي تتحرك ببطء:

الوفاء، الخوف، النُبل، والسقوط...

تلك الروح التي كتب عنها يوكيو ميشيما في قصائده ورواياته، حين صنع رجالًا يمشون على الحدّ الفاصل بين الفناء والمجد، بين الجسد والقدر، بين النور والسيف.

ومثل ميشيما، كان ناكازي يواجه عالمًا يتشقق من الداخل، لكنه...

وفي هذه الرواية بالذات، تُعاد روح الساموراي بعيونٍ عربية مشرقيّة؛

عيونٍ تتأمل هذا الإرث لا كما كُتب في اليابان، بل كما يُعاد توليدُه هنا، في أرضٍ تعرفُ معنى الشموخ والمقاومة، وتعرف أن كل أسطورة تولد من خطيئة، وسر، ودم.

هكذا يبدأ كل شيء...

بقلعةٍ مظلمة،

وسرٍ يجب أن يُدفن،

ورجلٍ يقف على حافة إرثه،

لا يعرف هل يختار الشموخ أم السقوط.



الفصل الأول: خطوات ضائعة

أنا لم أستطع مغادرة ذلك المكان

أنا حقا أشعر بالخزي و العار

لماذا شاهدت ذلك

أنا لا أستحق حملك...لماذا قمت بكتابتك أصلا أيها اللعين

لا أستطيع التحمل...أريد أن أموت أموت

لم أعد أفرق بين الليل والغابة... بين خطواتي وصوت الأرض وهي تبتلعني. كنتُ أشعر أن الأشجار تعرف اسمي، وأن الظلال تلتصق بي كما يلتصق الدم بالجروح القديمة.

كل همسة، كل حركة في الظلام كانت تقول لي: أنت لم تأتِ هنا لتأكل... أنت أتيتَ هنا لتُؤكَل.

نفسي الميتة في عيون زوجتي لم تكن إلا انعكاسًا لذنبٍ أعرفه جيدًا، ذنبٍ يسير بجانبي في هذه الغابة. كنتُ أراها وهي تبتسم لي كالثعلب ثم تختفي. كنتُ أعلم أن ما بيننا لم يعد زوجًا وزوجة... بل صيادًا وفريسة.

وضعتُ الأكياس على الأرض، وركعتُ بجانبها. برودة التراب اخترقت ركبتي، ورائحة اللحم امتزجت برائحة الخوف. مددتُ يدي أبحث عن حجارة أو جذور أتمسك بها، لكن أصابعي لمست شيئًا آخر...

رفعتُ رأسي فوجدتُ أن الغابة صارت غير الغابة، الأشجار نفسها لكن ألوانها مختلفة، الليل نفسه لكن صمته أعمق. كأنني كنتُ داخل جُبٍّ آخر...

كنتُ أزحف بين الأشجار الثقيلة حين انفرجت الغابة فجأة، فإذا بي أمام مشهدٍ لم أرَ له مثيلًا.

هناك، في بطن الليل، ارتفعت قلعةٌ شامخة كجثمانٍ مشوّه، كأنها بُنيت لا لتأوي البشر بل لتدفنهم.

مظهرها ليس مظهر حجارة نبيلة، بل جلدٌ مخضرّ التصق بجدرانها مثل صديدٍ متعفّن، يجعلها أقرب إلى كائنٍ مريضٍ يتنفس البؤس.

الهواء المحيط بها كان أثقل من غيره؛ رائحة الحديد الصدئ ممزوجة بندى الغابة الخانق. وكأن المكان كله أُفرغ من الحياة، فلا طائرٌ يحلّق، ولا ريحٌ تتحرّك.

وفي مقدّمتها ارتفع التمثال المرعب: جسد رجلٍ جامد، رأسه منخور بسيفٍ ذهبيٍّ لامع، ومن صدره تتدفّق دماء داكنة تسيل فوق الحجر كما لو كانت حقيقية، متوهّجة في ضوء القمر الباهت.

ذلك السيل الأحمر كان يقود بصري نحو الباب الكبير... بابٌ مسمّر بالصديد، عابسٌ كوجهٍ ميت لم يجد قبره بعد.

تجمّدتُ في مكاني، أبتلع أنفاسي، مدركًا أنني لستُ أمام أطلال عادية... بل أمام لعنةٍ تنبض، تنتظر من يوقظها.

ذلك التمثال لم يكن حجرًا فحسب، بل كائنًا ينزف نداءً.

كأنه يحثني على انتزاع السيف من رأسه ،يناديني بصوتٍ خافتٍ مبحوح، صوتٍ يشبه الريح في القبور:

تعال... تعال...

تجمّدتُ في مكاني، أطرافي تتثاقل، أنفاسي ترتجف، بينما شعرتُ بعشرات العيون السوداء تراقبني.

غربانٌ على الأغصان وفي الهواء، سوداء كأحجار مقابر طائرة، تتابعني بحدقاتها الباردة كأن الموت نفسه أرسلها لتشهد لحظة قراري.

نظرتُ إلى السيف؛ لامعٌ لكنه ملوث، كأن نصلَه شُحذ بالعفن والدم. رائحته كريهة، ثقيلة، تخترق أنفي وتصل إلى معدتي.

خفضتُ بصري، فإذا بالتراب يتحرّك تحت قدمي. لم يكن ترابًا عاديًا، بل تربةٌ حية تزحف وتصعد إلى ساقيّ ببطء، حتى دفن نصفي السفلي في الأرض.

الصوت ما زال يناديني: تحرر... تحرر... مهما كلفك الأمر.

كأن كل ما حولي — الغربان، التراب، الليل نفسه — يدفعني نحو السيف، وكأن نزعَه هو الباب الوحيد للخلاص أو النهاية.

تجمعت كل قوتي، ويداي ترتجفان، لكن الصوت في رأسي ظل يهمس: تعال... تحرر... مهما كلفك الأمر.

مددتُ يدي نحو رأس التمثال، النتوء الذهبي الذي اخترق جمجمتَه.

ببطء، وبعنف داخلي لا يصدق، أمسكته بكلتا يديّ، ثم سحبتُه...

صرختُ القلعة صرخة صمت، والدماء انطلقت من الرأس، تتدفق كأنها دماء حقيقية، تلطخ الحجر، وتغمر قدميّ.

السيف كان ثقيلاً، لا مجرد معدن، بل قوة عتيقة حية، تغذي روحي بالرعب والقوة معًا. شعرتُ بأن الأرض تحت قدميّ تتزلزل، والليل كله يراقب، والغربان تصرخ في صمتها.

لقد أصبحتُ، للحظة، جزءًا من التمثال، جزءًا من لعنة القلعة، والسيف بين يديّ ينبض كما لو أنه يعلم أنني قد اخترت مصيري.

فجأة، تشابكت القضبان الحديدية حول جسدي كما لو أن القلعة نفسها صارت حية، تلتف حولي، تضغط، تعصر كل عظمة وكل نفس.

لم أستطع تحريك يديّ، ولم أعرف من أين تأتي هذه القضبان... حتى رفعتُ بصري نحو النافذة.

هناك، في الظلام الممزوج بضوء القمر الباهت، كانوا أشخاصٌ بأثواب فاخرة لكنها مشوهة، وجوههم ملتوية، ضحكاتهم مقطوعة، مشوهة بالجنون. من أعناقهم خرجت القضبان، امتدت، تشق الهواء، تتجه نحوي، تضغط، تشدّني إلى عالم لا أستطيع الفرار منه.

شعرت بالغثيان يتسلل إلى معدتي، لكن لم يكن بإمكاني التقيؤ، لم يكن جسدي ملكي بعد الآن. التمثال الذي كان منحنيًا بدأ يرتفع، يواجهني بعينين جليديتين، ودموعه تسيل كما لو كانت لغة الموت، لغة صامتة لكنها واضحة لكل قلب ينبض.

ثم، دون مقدمات، تحول التمثال إلى إنسي مثلي، جسمه متناسق، هدوءه رهيب... اقترب مني بخطوات خافتة، كل كلمة من فمه كانت تهتز في أذنيّ، لكنني بالكاد أستطيع السمع، القضبان تشد على جسدي بقوة، تمنعني من أي حركة، من أي دفاع.

الأصوات حولي ارتفعت، الغربان بدأت تصفق بأجنحتها كأنها تهب عاصفة سوداء، وبدون سابق إنذار، اتسعت أفواه كل من المطلين من النافذة، بل حتى التمثال... وفي لحظة وجيزة، قُطعت رقابهم من العدم أمامي.

الدماء اندفعت، صرخات لم تسمعها الأرض، والفراغ الذي خلقته تلك اللحظة جعل قلبي يتوقف، وعقلي يصرخ، وكأن القلعة نفسها تحكم على كل من يجرؤ على الاقتراب من سرّها العتيق.

حتى أنا، رغم خوفي ورجفتي، شعرت بشيء غريب... كأن القضبان ليست فقط لتكبيل جسدي، بل لاختبار إرادتي، قياس شجاعتي، ومعرفة إن كنتُ مستعدًا لمعرفة الحقيقة التي تختبئ بين جدرانها الملعونة.

أدركت أن اللحظة القادمة ستكون كارثية، لذلك أغمضت عيني بشدة، أتمتم بحديث قديم سمعته من أحد المارين... كلمات مبعثرة عبثت بذاكرتي حتى ظننتها طوق نجاة.

لكن ذاكرتي خانتني، وتلعثم لساني.

وحين فتحت عيني وجدت نفسي في مكان آخر...

القلعة اختفت.

وأمامي الآن جثة غارقة في الوحل، نصفها مغمور بالماء الآسن، والنصف الآخر يطفو كأنه يقاوم النسيان.

حاولت النهوض، لكن قلبي بدأ يدق بعنف... نبضات موجعة تمزق صدري كأنها سكاكين.

تألمت، لكني تماسكت ومددت يدي المرتجفة نحو الجثة...

المكان بدا أشبه بجزيرة مهجورة.

هواء ثقيل، رائحة العفن، وأصوات بعيدة تشبه أنين أناس منسيين.

وقبل أن ألمس ذلك الغريق، أدركت أن أثر القضبان ما زال مرسومًا على جسدي... خطوط سوداء كأنها حُفرت في جلدي إلى الأبد.

الألم اندلع من جديد، يسري في عروقي كسمّ، فسقطت أرضًا أتلّوى كأفعى تحت وطأة النار.

لم أستطع الاقتراب.

كلما حاولت، ارتفعت الأصوات من حولي، همسات تتجمع، تتحول إلى ضحكات مكتومة...

وأنا، عاجز أمام جسد غارق، وعلامات لعنة لم تفارقني.

مرَّ ذلك الألم وجيزًا ثم فتحتُ عيناي بصعوبة تامة... لم أفهم ما الذي يحدث لكني شعرت بثقل الهواء في صدري، وكأن كل نفس ألتقطه يختنق داخلي.

ثم، وسط هذا الخواء، أحسست بأنفاسٍ تجاورني... أنفاسٌ باردة كأنها تخرج من فم الموت نفسه.

التفتُ بصعوبة فرأيت الجثة الممزقة... تتنفس.

صدرها المهشّم يرتفع وينخفض ببطء، عيناها نصف مفتوحتين وكأنها تحاول النطق، لكن صوتها مكتوم خلف الدماء المتجلطة.

وسّعتُ نطاق رؤيتي رغم الدوار، فإذا بمشهدٍ مرعب يتكشف أمامي:

الكثير من الجثث المنحورة... أطفال، شيوخ، شباب، كلهم ميتون بطريقة شنيعة.

أغلبهم معلقون فوق الأشجار بطرق لا تحتملها العين، وأجسادهم تتأرجح كدمى مكسورة في مهب الريح، والبقية وجوههم متصلبة، مشدودة كأنها صخور نُحتت بالذعر، لكن الغريب... أنهم واقفون أمامي، يتنفسون، عيونهم تلمع تحت قشرة الموت.

قدماي لم تساعداني على النهوض.

أردت الهروب، أردت أن أصرخ لكن صوتي اختنق في حلقي، وجسدي بدأ يصرخ من الداخل، الألم يتفجر من كل خلية فيّ.

ثم رأيت شيئًا يتحرك بين الأشجار، ظلٌّ طويل يقترب ببطء...

شخص ما يركب جوادًا أسود ضخم، يهرول نحوي، يرفع سيفًا طويلاً ملطخًا بالدماء يلمع تحت نور باهت كأن القمر نفسه ينزف فوقه.

كان صهيل الحصان مثل نحيبٍ، وكانت خطواته تهز الأرض من تحتي، وكلما اقترب شعرت أن الهواء صار أثقل، وأن الأرض تغوص تحت جسدي.

رفعتُ رأسي بصعوبة، حدقتُ في السيف المرفوع، ولم أجد في نفسي إلا أن أصرخ:

– بحق الجحيم... ما هذا؟

الفصل الثاني: هروب مميت

- إهجمواااااااااا! لا ترخواااا! دفاعكم هيااا... العدو أمامنا

.....

تلك الجملة الصاخبة أشعلت فتيل الرعب في قلبي. أنزلت رأسي وغمرته بالمياه الآسنة، ورائحة الدم واختلاطها بالوحل جعلت فمي يتذوق مرارة الحياة والموت معًا. لكن صوت الخطوات كان أكثر حدة من قرع الجماجم... كل خطوة تقشعر لها الأبدان، كأن الأرض نفسها ترتجف من وقعها.

ثنيت ركبتي قليلاً لأتمكن من الوصول إلى الجثة المقابلة، لكن ذراعي كانت مخدرة من أثر الصدمة، وكل عضلة في جسدي متوترة بلا رحمة. اقترب الصوت بجنون مخيف، وكان يزداد قوة مع كل ثانية، فضغطت على لساني بقوة حتى سالت منه الدماء، وغطيت وجهي بدماء الجثة، استلقيت هامدا بلا أي حركة، آملا أن يظنوني موتى تمامًا.

الخطى اقتربت... وكان أمامي رجل قبيح الوجه، عينيه تتلألأان ببرودة، يرتدي قبعة جندي عليها نجوم لامعة، كبرياؤه الظاهر يكسوه خشونة وحقد. قبضتي كانت مشدودة من الخوف، لكني تراجعت، أتنفس بصعوبة، أحاول الحفاظ على وعيي.

فجأة، أحسست برصاصة تخترق قدمي، تأوهت للحظة، ثم كتمت صرختي الساخنة. الألم تسلل إلى كل خلية في جسدي، والأنفاس اختنقت في صدري، لكن لا مفرّ... يجب أن أصمت. حاولت ألا أرفع رأسي من المياه، خشية أن يكتشف ملامحي المتألّمة.

.....

ثم انفجرت صرخة واحدة مني، لم تلفت انتباه الأعداء، لكنها سببت ارتجافًا غريبًا بينهم، كأن الصمت الذي خرقته هزّ جسد الغابة نفسها. أمامي، مجموعتان من الأعداء: أسبان يتقدمون بلا رحمة، وآخرون مختبئون خلف الأشجار، وجوههم مظللة بالظلال، لم أستطع التمييز بينهم بوضوح.

الريح حملت رائحة العرق والخوف والبارود، وأوراق الأشجار المبتلة صاحت بصوت يختلط بخشخشة الأسلحة، بينما الرصاص يصفق بين الغابة كما لو كانت الطبيعة نفسها تشهد المعركة. شعرت بأن قلبي يكاد يقفز من صدري، وأن الليل أصبح أعمق وأثقل، يغلق عليّ كل منفذ للهرب.

بدأت أزحف وأجر قدمي كالمعتوه، أتعثر في دمي وفي الظلال التي تلتصق بعينيّ. كان الذعر المميت يتلبسني كالوشاح، يغلف صدري ويضغط على رئتيّ حتى كدت أختنق. لم أعد أستطيع استيعاب شيء؛ الزمن كله صار يتفتت أمامي، وأفكاري تتساقط كزجاج مكسور. هل الوقت يسعني لأنشغل بها؟ لا وقت للتفكير. كان عليّ الهروب، فقط الهروب... والإحتماء من هذه الفوضى الكارثية التي تحولت فيها الحياة إلى رماد.

صوت الرصاص كان يمزق الأفق كالبرق، ورائحة اللحم المتفحم تنخر حواسي وتشلها، حتى شعرت أن جسدي صار حجراً بارداً، لكني رغم ذلك ركضت بأقصى ما أملك من سرعة، ركضت وكأن الموت يلهث خلفي، وأنفاسي تتقطع كصفير الريح في مقبرة مهجورة.

كانت الجثث المصطفة أمامي كجدار من الرعب، تعيقني في كل خطوة، لكني ركلتها بعنف، بوحشية، ببرود حيوان تجرد من آدميته، عيناي لا ترى إلا النجاة، وقلبي لا يعرف إلا الخوف. فجأة شعرت بأن الأرض تنتفض تحت قدمي، تهتز وتتنفس من الأعماق... صوت ما يعلو السماء، يرتجف له الهواء نفسه.

رفعت رأسي الغارق في الدماء ببطء، وارتجفت حين صُدمت بمشهد طائرة ضخمة تحلق فوقي، جناحيها يظلان الأرض، عليها علامة غريبة، رمز لدولة ما... شعرت بالبرق يضرب قلبي. الذكريات الخانقة عادت فجأة، كأنها شظايا زجاج مغروس في رأسي، وتذكرت... تذكرت أن هذا الرمز يعود لدولة واحدة... إنها هي... لكن الاسم... الاسم يتبخر من لساني... اللعنة!

.....

وجدت البحر أمامي... البحر نفسه يصرخ كأنه كائن حي مذبوح، أمواجه تتلاطم بوحشية، والريح تصفع وجهي المخضب بالدماء. ركضت... وركضت... وركضت حتى شعرت بأن قدمي تنزلق مع صخور التلال الحادة. الأرض انشقت تحتي وسقطت... سقطت من أعلى التل، والريح تصفر في أذنيّ كعويل الأرواح. ارتطم وجهي على رمال البحر البائس، الرمال باردة، تشبه حضن الموت.

تمسكت بقدمي كالمحون من شدة الألم، لكن الأصوات من حولي كانت تتصاعد... إنها تقترب نحوي بسرعة مخيفة.

اعتراني اليأس للحظة، همست لنفسي: بئسا... كيف لهذا أن يحدث؟ لقد كنت في منزلي، أتشاجر مع زوجتي وميليسيا وناناشي... لماذا هجرت الأمان وغادرت؟ اللعنة... اللعنة! أنا حقًا أحمق.

انهمرت دموعي كسيل عاصف، وبدأ جسدي يرتجف بلا إرادة. دفعت نفسي للأمام بقوة لم أستطع حتى وصفها... قوة غريبة تنبض من أعماق الغريزة الإنسانية، مزيج من الرغبة في النجاة واليأس المميت

.....

فجأة، قطع صرير الرمال والغبار صوت امرأة تركض نحوي. نظرت من حولي، لكن الغبار الكثيف والحصى المتطاير أخفى منظرها. شعرت بملمس دافئ يلتصق بي، كأنها تمسك بكل قوتها لتشدني بعيدًا عن الموت... تسحبني نحو مياه مالحة تتقافز فيها الأمواج كأنها حية.

وغصت في قلب الماء البارد، لا أفهم ما يحدث، شعور بين الغرق والانقاذ. ثم سمعت صوتها، حازم ومرتجف في آن واحد، يكسوه الشجاعة:

- لا تبكِ... أنت رجل! الرجال لا ينهارون هكذا... هيا، ساعدني، سنصل قريبًا إلى القارب.

رؤيتها أمامي، جسدها مغطى برذاذ البحر، شعرها مبلل ومتشابك، وعينها مشتعلة بالعزم، منحني شعورًا غريبًا... مزيج الرعب والأمل في نفس اللحظة.

.....

فور أن وصلنا إلى نقطة اللاعودة أدارت الإمرأة رأسي نحو المياه..و بدأت في إغراقي و قالت بصوت بالكاد إستعطت فهمه: أنظر جيدا يجب أن تجد المجداف

قواي خارت و أنا احاول فهم ما يحدث و لكن إنتبهت فجأة إلى وجود معدن فضي يترنح بين المياه الضحلة...فرفعت رأسي و نظرت نحوها بعيون واهنة... و قلت: إنه إنه

فهمت المرأة ما أقصد و إرتمت نحو الماء ثم عادت و في يدها مجداف طويل حاد الرأس...و نظرت من حولي لأكتشف أننا أمام جزيرة ملونة بالرماد و السواد...

الجزيرة بدت لي وكأنها تنبض بالموت، أشجارها محروقة نصفها واقف ونصفها متفحم، أغصانها مثل أذرع عظام ممدودة للسماء.

الرماد غطى الشاطئ حتى صار كأنه ثوب أسود مرشوش بالفضة، وبقايا النيران مازالت تتنفس دخانا خفيفا يتلوى مع الرياح.

المياه حولها كانت معكرة، خضراء داكنة، تتقاطع فيها ظلال أشكال لا أجرؤ على تحديدها إن كانت صخورًا أم جثثًا غارقة.

السماء فوقنا انقسمت بين غيوم داكنة كالجمر وبين فتحات صغيرة يدخل منها ضوء باهت، ضوء جعل المجداف في يدها يتوهج بريقًا كأنه يحمل قصة قديمة لم تُرو بعد.

•••••

أمسكت ذراعها بقوة و قلت لها و أنا ألهث: من أنت

إبتسمت و جذبتني رائحة شعرها...و كأنها تضع إكليلا فيها..كانت عيونها الرمادية تنساب مع سواد شعرها الأملس...أشرق وجهها للحظة ثم تغيرت نبرة صوتها عندما شاهدت نفس المجموعة و هي تصوب أنظارها نحونا.

إنتشلتني من سكوني إلى الأمام و لاح لي من بعيد قارب صغير مهترئ...وكان يوجد شخص يصفق بيديه كأنه يطلق إشارة ما، و ما إن بدأت أحرك جسدي إلى الأمام حتى أحسست بطلقة صدمت جدار المياه...

تبعثرت قطرات الماء من حولي كسهام زجاجية، و دوّى الصدى في أذني حتى شعرت كأن البحر كله يرتجف.

أطبقت المرأة ذراعها و بدأت تسبح بقوة و بسرعة جنونية، عضلاتها تشدني كعاصفة، عيناها لا تفارقان القارب.

كنا على بعد خطوة واحدة فقط، والبحر خلفنا صار يموج بأقدامهم التي تدكّه، صرخاتهم تتلاشى بين هدير الأمواج.

الهواء صار أثقل، والمجداف في يدها يشطر الماء كحدّ سيف، وكل لحظة تأخر تعني أن الرصاصة القادمة ستجد قلب أحدنا.

أما ذاك الرجل الذي يصفّق من بعيد، فكان أشبه بشبح يخرج من رماد البحر. ثوبه ممزق يلتصق بجسده النحيل، ووجهه نصف مغطى بقطعة قماش داكنة. عيونه تلمع بجنون غريب، كأنه يريد إرشادنا وفي نفس الوقت يستدرجنا إلى فخ.

تصفيقاته لم تكن عشوائية، بل كأنها نبضات محسوبة على إيقاع الموج، كل ضربة لليدين تصعد معها سحابة صغيرة من طيور البحر وكأنها إشارات سرّية لا يفهمها إلا هو.

÷÷÷÷÷÷÷÷÷

الفصل الثالث: مسرحية ملعونة

لاا أريد أرجوك لا تفعل أرجوك أتوسل إليك ألا تفعل أنا حقا أنا أنا

ناكازي إستيقظ...ناكازي

شعرت بصفعة دامية على وجهي..فإستيقظت مفزوعا و شاهدت نفس المرأة أمامي بوجه شاحب...كان شعرها يلتصق بخدي من أثر المياه المالحة، ويديها ترتجفان كأنها خرجت للتو من عاصفة عاتية. كانت أنفاسها حادة، تتسارع مع دقات قلبي المذعورة، وصوتها يخرج متقطعاً بين الخوف والصرامة: "استيقظ، أنت مازلت حياً، لا تنم!"

••••••••

لمحت عينيها الرماديتين تلمعان تحت خيوط ضوء شاحب قادم من السماء، والبحر من ورائنا يهدر كالوحش المحاصر. كنت لا أزال عالقاً بين الكابوس والواقع، جسدي يرتجف وأطرافي متيبسة، أحاول تمييز ما إذا كانت تلك الصفعة أيقظتني من حلمٍ أم من موتٍ قريب.

وجدت نفسي بعدها أفرك جلد بقرة على مقربة من قصر ما يقال أنه قصر بريطاني.

كانت يداي متسختين بالتراب ورائحة الحيوان العالقة بأنفي تزيدني غربة. لم أصدق منذ الوهلة الأولى، لكن عندما أنبأتني المرأة أن هذا القصر تعود أصوله إلى حقبة ما قبل وجود العائلة الملكية، انتفضت روحي بدهشة.

••••••••

الجدران ارتفعت أمامي كأطيافٍ من زمنٍ سحيق، مائلة إلى السواد، تتنفس بين شقوقها رطوبة القرون الماضية. كان القصر شامخاً، لكنه بدا كأنّه يخبئ في أحشائه أسراراً لا يجرؤ التاريخ على البوح بها.

رؤيتي كانت ضبابية بعد ذلك الصراع الخرافي في تلك الجزيرة، أصوات الرصاص ما زالت تدوي في أذني، ورائحة البحر المالح تختلط بذاكرتي، حتى لم أعد أميز بين الحقيقة والوهم.

••••••••••

لم أفرط في التفكير كثيراً، فقط سايرت الواقع الموجود، كما كنت أفعل دائماً مع الجميع، أضع قلبي في جيبي وأدع قدمي تمشيان بي حيث لا أعلم... لكن شيء ما في ملامح القصر، في ظل نوافذه الكئيبة، جعلني أحس أن خطواتي هذه لن تكون كسابقاتها أبداً.

نهضت من على المقعد الخشبي أمسح العرق المتصبب فوق لحيتي... كان الخشب خشنا تحت يدي، ورائحته العتيقة تختلط بدخان الكحول الذي ملأ المكان.

مر أسبوع وأنا على نفس الوضع: تنظيف متواصل و كوابيس مزمنة، الليل يطاردني أكثر من النهار.

اللعنة، أصبحت أشرب كل يوم قنينة كحول حتى أستطيع تناسي ذلك المشهد في الغابة، لكن لم أستطع.

ذلك المشهد كان أقوى من أن يُنسى، كأن عينيّ انغرستا فيه للأبد.

المرأة كانت تختفي وتظهر، ظلها يعبر أمامي ثم يتبخر... حتى اسمها ظل مجهولا.

وذلك الرجل الذي كان على القارب أصبح يراقبني بغرابة، عيناه تتبعاني حتى في يقظتي.

.....

ويا إلهي... هل هذه عربة فخمة؟

لقد كنت أفرك عيني من الصدمة... عربة سوداء، مطلية بلمعان باهت، تجرها مجموعة من الأحصنة الثقيلة، أصوات حوافرها تقرع الأرض كطبول حرب.

لكن تلك الجثة لمن... يا ترى؟

جسد ممدد فوق المقعد الجلدي، الدم يسيل ببطء، ورائحة الحديد الصدئ تغمر الهواء من حولها.

كنت أمسح بقايا الطعام من الصحن وأربّت على روسي البقرة الشمطاء.

حسناً... لقد شعرت بالملل من طول الانتظار، لكن داخلي كان يستشعر الخطر؛ العيون كلها تتربص بي، تنتظر مني زلّة، سؤالاً غريباً يكشفني.

لقد بنيت حياتي على الحدس، على الشعور المسبق بالأشياء... لكن هذه المرة، كان الحدس ثقيلاً، مظلماً.

تلك الجثة... رائحتها أنتن من روث روسي.

الدم امتزج بالتراب، وصوت أنين متقطّع يخرج من أنفه المسودّ، أقدامه مبتورة، ملامحه مشوّهة... كأنني أمام ذبيحة تُساق إلى المفرمة ليفرم لحمها.

وعلى رقبته طوق معدني... كلاب؟ أنفي احتقن بالغثيان، لكن عيني لم تفلت المشهد.

فجأة، لاحظت حركة سريعة.

رجل القارب جذبني نحوه بفظاظة، وصوته يخترق أذني:

."أحضر السرج فوراً."

ماذا؟!

تركت الصحن جانباً، وناولته السرج، لكنه أشار إليّ بيده بعصبية:

."أعطه لصاحب العربة."

اقتربت من الباب الموصد، يدي ترتجف، لكن...

الرجل الميت رفع رأسه لتوّه.

ماذا؟!

لقد كان ميتاً... ميتاً بالفعل، ومع ذلك رفع رأسه، وعيناه الخانستان غرستا نظراتهما في عيني.

كان يستنجد بي، يصرخ صمتاً.

لكني... أنا مثله، لا أختلف عنه، مجرد أسير آخر.

حدسي يصرخ: "لا تذهب... مستحيل."

.....

وفي تلك اللحظة، فتح باب العربة ببطء...

لتظهر فتاة صغيرة، وجهها شاحب، عيناها زجاجيتان.

يا إلهي! تراجعت خطوة، لأفسح المجال لذلك الكلب الضخم الذي اندفع من الداخل... أنيابه تلمع، ولعابه يتناثر على الأرضية الخشنة.

إندفع نحو العشب الأخضر، أنفه الأجعد يتحسس الأرض كما لو كانت تحمل أسرارًا خفية، يتحرك بعنف وفضول، جسده مغطى بوبر حريري يلمع تحت أشعة الشمس المتقطعة، أنقى من بشرة صاحبته التي حدقت بي بعينين متوهجتين مليئتين بالغرور والفضول.

يا لها من فتاة غبية، عشوائية وحادة في تصرفاتها، كل حركة منها تحمل شيئًا من الفوضى.

ناولتها السرج، لكنها نهرتني بقوة بقدميها، دفعة سريعة أوقعتني على أطراف أصابعي للحظة، وعضضت شفتي من شدة الغيظ، لكنني حاولت أن أتمالك نفسي وأغمضت عيني للحظة، أتمتم في نفسي:

."نازاكي إكتم غضبك... أعرف أنها تستحق الركل لكنك أعقل من هذا."

لكن حركتها الأخيرة كانت مفاجئة وعشوائية، كما لو كانت الرياح نفسها تتحكم بها. نادت كلبها، الذي اندفع بسرعة مذهلة، مسح الأرض بأنفه في شغف، ثم قفز على الرجل الممدد خلفها وبدأ يلعق دماءه بوحشية، ألسنة الدم تتطاير على الأرض المبتلة، منظر يبعث القشعريرة ويثير الغثيان.

أدركت الفتاة شعوري، فتراجعت قليلًا وأمسكت باللجام بيدها الصغيرة، بينما شعرت بشيء حاد يقترب من جسدي فجأة، فابتعدت بسرعة، قلبي يرفرف، جسدي متشنج، والهواء حولنا مليء برائحة الدم والعشب الرطب.

اللعنة... إنها تحاول قتلي بالفعل.

كانت كل ثانية معها اختبارًا لإرادتي، كل حركة من حركاتها تضغط على أعصابي كما لو أن المكان نفسه يختبرني. صوت أنين الرجل، صهيل، الكلب، وصرير السرج الممتد بين أصابعي كلها تشويش على حواسي، تزيد التوتر والرهبة مع كل ثانية تمر.

الرجل من خلفي يضحك...صوته أجشّ كأنه يخرج من صدرٍ متهالك، ورجل القارب المتجهم يضحك هو الآخر، ضحكة ثقيلة تتردد بين جدران المكان المفتوح، كأنها ارتطام معادن ببعضها.

اللعنة...إنها بالفعل مؤامرة.

الهواء صار أثقل من صدري، والضحكات تتشابه وتتعالى حتى تتغلغل في أذني كإبر رفيعة. ثم تذكرت صوت ضحكات النساء في القلعة السابقة...إنها تشبه ضحكة هذه الفتاة القبيحة.

شعرها البني المجعد يتناثر حول وجهها كأفعى، ومع ظفائرها الغريبة يضفي لونا لعينا على المشهد الذي أصلاً مليء بالقبح والرعب، وتلك العيون...يا إلهي...إنها تشبه ثعلبا ماكرا، عيون ضيقة تلمع بخبث تحت ضوء مائل للصفرة.

ثم سمعت صوت رجل القارب وهو يقول بصوت أجشّ يشبه نعيق الغربان:

.سيدة القصر تنتظر إستقبالها، تنح هيا.

هذه الفتاة سيدة إذن...إنها سفاحة القصر. أي قصر هذا الذي يشعرك بالقرف كل يوم؟ المكان هنا رطب، رائحة دم ممزوجة بالتراب المتعفن، الجدران متآكلة، حتى الهواء يلسع الجلد برائحته النتنة.

اعع أريد المغادرة حقا لكن الجثة تتوسل إلي بعينيها...عينان نصف مطفأتين، زجاجيتان، دموع الدماء تنزل منها كأنها تتحدث بلا صوت.

كان الكلب يثب فوقه بأقدامه الثقيلة، أقدام كصخور تدهس عظامه، ينهش دمه ويتلذذ بتنكيله، صوت مضغه للحم يخرج مشوشًا مبحوحًا كأنه آلة صدئة تدور في الظلام. والفتاة تبتسم في هدوء شيطاني، في يدها السرج يتأرجح مثل سلاح.

.....

فجأة سقطت على ركبتي من ثقل الصدمة، قلبي يدق كطبول حرب. تلك اللعينة لقد أمرت سائق العربة بذلك ثم وضعت السرج فوق ظهري وانتصبت بقامتها الهزيلة فوقي، ظلها يسقط على وجهي كأنه ظل مقصلة، وقالت:

.وجهك ناعم مثل حصان مدلل...هيا أنت تستحق ذلك.

وضحكت...ضحكة ممزوجة بنشوة، ثم اختلط الصوت بصهيل الحصان صادر من حنجرتها وبنهيق داخلي في أذني. لكني نهضت بكل ما تبقى فيّ من قوة، دفعة عمياء سقطت هي إثر نهوضي، ارتطمت بالأرض صرخة مكتومة خرجت منها.

oooooooo

ثم ركلتها بقوة عمياء، قدمي ارتجفت من شدة الاندفاع، والغبار ارتفع حولنا في دوامة صغيرة.

صرخت بوجهها واللعاب يتطاير من فمي:

.اللعنة عليك هل تحسبينني حيوانا أيتها المريضة السافلة!!

لم أستطع المكوث أكثر... ظللت أدهس على رقبتها حتى شعرت بعظامها تتفكك تحت وطأة قدميّ. لقد ماتت، لقد قضيت عليها، لكن قلبي بقي جامدًا، لا يبالي. لعينة متغطرسة... مجرد قصر ونفوذ جعلاك طاووسًا متكبّرًا. ثم بصقت على وجهها، وأطلقت صرخات الشتائم التي ملأت أذان الجميع. كانت العيون المتجمعة تراقبني بارتياح، كأنهم كانوا يتوقعون انفجار غضبي.

لكن ما أشعل خوفي من جديد كان صوت المرأة التي أنقذتني، يعلو في الخلفية، كأنه صدى في غابة مهجورة: "أختي... اللعنة... أختي..."

اهتزت أذنيّ من وقع صوتها، وارتعش جسدي من الحيرة، وكأن الكلمات كانت تخترق روحي وتفككها قطعة قطعة.

الدم المختلط بالغبار، الرائحة المتعفنة للجثث، وحتى الهواء المحيط يبدو مشبعًا بالخوف؛ كل شيء حولي يصرخ، لكن قلبي لم يعد يميز بين الغضب والخوف. شعرت بأن كل جزء مني يرتجف من الداخل، كأن نفسي نفسها تتقاتل مع جسدي.

رجل القارب كان يبتسم... يبتسم ابتسامة مستفزة، ابتسامة تجعل الدم يتجمد في العروق، وكأنها تحدي ساخر لكل خوف يعتصر قلبي. لذلك هربت... بأقصى سرعتي، أقدامي تدوس أوراق الشجر الجافة بعنف، والفروع تخدش وجهي وملابسي بينما أندفع بين الأشجار القريبة، أوراقها تهمس في أذني كما لو تراقب كل حركة مني. لكن أصواتهم، صرخاتهم وضحكاتهم، ما زالت حاضرة في قلبي وعقلي، تتسلل في أذني كصرخاتٍ خافتة لا تنقطع، كأن الغابة نفسها تتآمر ضدي.

لكن ما جعلني أقف هو كلمات الإمرأة ذاتها، وضحكتها الماكرة:

«سيتجه نحو بوابة العبيد... سيكون سعره مناسبا جدا... هناك... أحسنتم جميعا و الآن نظفوا المكان وأحضروا الجثث وتلك الفتاة أرجعها لأمها أنا لا أريدها الآن بعد أن ماتت.»

الصدمة اجتاحت لحمي، وبرودة الرعب تشقّ عروقي حتى أخمص قدمي. بئسا، لقد انجرفت معهم، صدقت أنني... أنا اللعنة، اللعنة! أين سأذهب الآن؟ هم يتوقعون ذهابي إلى هناك بسبب هروبي... وكل ظل يمرّ أمامي يهددني. غيابها، المرأة المنقذة، لم يكن صدفة... هل كانت جزءاً من هذا المخطط كله؟ بئسا، بئسا نازاكي، أنت في ورطة... سيجدونني...

الرياح حملت رائحة التراب الرطب والدم الفاسد، وطيور الليل أطلقت صرخات غريبة في السماء، تتابع خطواتي بين الأشجار. قلبي يرفرف بقوة، أنفاسي متقطعة، والظلال تتحرك أمامي كأنها تحاصرني من كل جانب. كل شيء حولي يبدو حيًا، متربصًا، وكأن المكان بأكمله يراقبني ويرغب في أن يلتهمني.

الفصل الرابع: فكتوريا

بئسا بئسا قدمي تعفنت من المشي... كم مر من الوقت؟ ساعة، ساعتين... أظن أنها ثلاث... منذ أن هربت وأنا أضرب الأرض بقدمي المترهلتين كالمعتوه، كأنني مسجون في دائرة من العذاب لا نهاية لها. أصابعي محمرة ومجروحة بشدة، حتى ملمس الجلد أصبح لزجًا كأن دمي اختلط بالتراب، اعع إنها الصخور اللعينة القاسية التي تشبه شفرات سكاكين مزروعة في الأرض. منذ الفجر وأنا من شجرة إلى أخرى، أتنقل كالظل الهارب، إنه مكان يضيع فيه من لا يعرف الطريق مثلي، وأي طريق هذا؟ كل الطرق تؤدي إلى الموت المهين... كأنني أسير في متاهة شيطانية حيطانها أشجار وأرضها أشواك. لو أنني خضعت لتلك البغيضة لكنت الآن بجانب لوسي أتناول صحن العدس المر، ذلك أفضل ألف مرة من هذا المكان المقفر المهجور الذي يلتهم أنفاسي ببطء.

.....

الأشجار تشبه أرواحًا ضالة تهمس لي بأصوات لا تُسمع، أوراقها سوداء ميتة تتساقط مثل رمادٍ فوق رأسي، وأنا أشبه كلبًا مسعورًا أفتش عن كرامتي وسط تلك الوجوه الغريبة التي لا أراها إلا في خيالاتي... بئسًا، ما هذا المكان؟ لقد صادفت هذا النهر للمرة العاشرة... أو هي الخامسة عشر... أظنني أدور في دائرة مغلقة مثل فأر في عجلة. لحظة... أهذا...

رأيت للحظة ظل حصان أبيض عابر، يطرق الأرض الجافة بحوافره الثقيلة فتثير الغبار حوله كأنه شبح مهيب من عالم آخر. لكن من ذلك الذي يركبه؟ قلبي انقبض وركبتاي ارتجفتا. اختبأت خلف الأشجار، جسدي يرتعش كالورقة في مهب الريح، لأرى مشهدًا مروّعًا... إنها فتاة صغيرة صهباء، شعرها الأحمر القاني منتشر كلهيب على رأسها الصغير الموحل، تتناثر خصلاته كأنها دموع نار، وجهها مغطى بالوحل كقناع من الطين يخفي ملامح البراءة. وقدماها مبتورتان مثل تلك الجثة التي رأيتها... كأنها انتزعت حياتها ببطء من تحت قدميها.

بئسا... لقد لمحني لتو... لقد تقابلت أعيننا، تلك النظرة اخترقت صدري مثل سكين. ماذا سأفعل لأهرب؟ لكن قدمي ستخذلني كالعادة، النهر... سوف أرتمي فيه، النهر هو مهربي الأخير. ألقيت جسدي المثقل بالجروح نحو النهر الجاري، كان تياره عنيفًا يضربني كصفعات متتالية، لكن ما باليد حيلة، يجب أن أهرب... الماء بارد كالموت ينهش أطرافي، ومع ذلك أحسست بقلبي ينبض بجنون.

.....

لا أعرف لماذا حدسي ينقذني من هذه المواقف كل مرة، لكنه اليوم يوشك أن يخونني. ومع ذلك، وجهه يبدو ناعما... إنه فارس في هندامه، لكن وجهه نقي وصاف كأنه سليل ملكي، نور غريب يخرج من ملامحه كأنه ليس من هذا العالم.

لكن ذلك الحصان كأنه ردار حي يترصد كل حركة...لقد أتى نحوي بسرعة قاتلة أحسست بأن حوافره ستنغرس في عيني لكن ذلك لم يحدث بل شفرة ذلك الناعم إخترقت كتفي فمزقته...بئسا هل أنتم تريدون تشويه جسدي عمدا... التيار كان يركلني يمنة و يسرة و ذلك السيف اللعين إنحشر عميقا في لحمي و صوت الفتاة من خلف الحصان كأنه صوت طنين دبور همجي:" الموت "

ماذا أتسخر مني هذه الصغيرة

و بعدها شعرت بخطاف يتجه نحوي...اللعنة عليكم هل أنا دب بري لتصطادوه..و هذا الهجوم كله لأن التيار منعهم من الغوص فيه لذلك هشموا جسدي بعتادهم...أغبياء ملاعين

إنتشلني ذلك الناعم بخشونة و فظاضة و كلمة واحد علقت في فمه النتن: إفحصوه

ماذا ستفحص أقدامي المتورمة أو وجهي المرهق من المشي ماذا ...لم أتمالك نفسي و عضضت يده و رغم الألم قاومت أذرعهم المتسلطة علي...بئسا بئسا أيها الحدس الغبي...حدسي عندها أخبرني أن أخفض رأسي فخفضت لأن قوسا ضخما مر من فوق رأسي و أصاب قدم الناعم ذلك..إبتسمت إبتسامة خفيفة...تستحق ذلك حقا

.....

كانت الفتاة الصهباء، بشعرها المشتعل كلظى، كأنها شعلة لُعِنت بالبقاء في جسد صغير، تضحك على الخراب من وراء الحصان، وصوتها "الموت" لم يكن كلمة بل لعنة، لعنة تحمل براءة مشوهة، كطفلة لم تُعط لعبة، فأعطيت جثة. عيناها تلمعان بصفاء وحشي، كصفاء ماء راكد يخفي تحته وحوشا غارقة منذ قرون.

أما الناعم، فكان وجهاً من نقيضين: بياض بشرة يقطر طهراً ملكياً، وقسوة يد تشق اللحم بلا تردد. وجهه لم يكن جميلاً بقدر ما كان مرآةً لعدالة باردة، تلك العدالة التي لا تُقاس بالحق أو الرحمة، بل بالسطوة وحدها. كل حركة منه كانت محسوبة، كل زفرة تحمل يقيناً بأنني مُلكه، كأني مجرد غنيمة أُنتشلت من النهر.

الحصان ذاته كان كابوساً مُجسداً، جسده الأبيض يلمع كقبر مكسو بالثلج، وعيناه تتقدان كجمرتين تلتهمان الروح قبل الجسد. وقع حوافره على الأرض لم يكن مجرد صوت بل إنذار، كأن الطبيعة كلها ترتجف مع كل ضربة.

والنهر الذي ارتميت فيه صار شاهداً صامتاً، يحاصرني بموجه العنيف، كأنه يدرك أن لا مفر من الأقدار التي تُحاك ضدي.

أما أنا، فقد صرت جثة تمشي، تتألم وتقاوم، لكن ابتسامتي الأخيرة لم تكن مجرد انفعال بل إعلان حرب: حرب ضد موتٍ لم ينجحوا في انتزاعه مني بعد.

••••••••••

حُمِلْتُ على الأكتافِ مثلَ البعيرِ المُنهَكِ في الصحراءِ، وارتفعَ جسدي مترنّحًا بينَ أذرعٍ خشنةٍ كأغصانٍ عتيقةٍ، فيما أنفي يلتقطُ رائحةَ حريقٍ كريهةٍ، كثيفةٍ، لاذعةٍ، تملأُ المكانَ كأنها زَفْرَةُ جحيمٍ قد فُتحَ بابه. فتحتُ عينيَّ بصعوبةٍ كمن يَخرجُ من غيبوبةٍ عميقةٍ، وتبا لهذا المنظرِ الممسوخِ أمامي؛ تلكَ البغيضةُ رأسُها يتدلّى أمامي مثلَ غرابٍ قبيحٍ عُلّقَ من جناحيهِ، شعرُها قد نُتِفَ بعنفٍ حتى صارَ هشيماً أسودَ كالرماد، وفمُها خيطَ بقضبانٍ من حديدٍ صدئٍ يلمعُ بلونِ الدمِ الباهتِ.

اللَّعنةُ، لماذا أنا مربوطٌ هكذا؟ من صاحبُ هذه الرائحةِ التي تتقافزُ في أنفي كشراراتِ نارٍ صغيرةٍ؟ إلهي... تلكَ الفتاةُ الصهباءُ تنظرُ إليَّ بعيونٍ قادحةٍ كأنها سهامٌ من لهبٍ تُرسلُ لعناتٍ مكتومةً في صدرِها، عيناها تضيقُ ثم تتسعُ كأنها تتهيأُ للانقضاضِ عليَّ. كتفي ينزفُ أنهارًا صغيرةً، يختلطُ الدمُ بالغبارِ فيصيرُ طينًا داكنًا، وفمي مشقوقٌ من الأسفلِ إلى أنفي كشَقٍّ في صخرٍ، يلسعُهُ الهواءُ فيزيدُ الألمَ أضعافًا بسببِ اصطدامي الحادِّ على الصخورِ.

ناكازي، أنتَ ميتٌ لا محالةَ... الهمسُ في داخلي صارَ صراخًا، وهذا القصرُ... ما هذا بحقِّ الأرضِ والسماءِ؟ أعلامٌ غريبةٌ، شعاراتٌ غيرُ مألوفةٍ ترفرفُ أمامي، طلاسمُ مرسومةٌ على الجدرانِ كأنها أختامُ لعنةٍ قديمةٍ، والشمسُ ما زالت في مطلعِها تضيءُ أركانًا وتُغرقُ أركانًا أخرى في ظلالٍ باردةٍ كالموتِ. عصافيرُ قذرةٌ تحومُ حولي، تلتقطُ الفتاتَ من الأرضِ وتُطلقُ صياحًا مزعجًا، عقلي سينفجرُ أنقذوني.

.....

ذلكَ الناعمُ يمرّرُ أصابعهُ فوق رأسي بطريقةٍ مقززةٍ، يضغطُ على جمجمتي كأنها دُميةٌ بينَ يديه، إنه يفعلُ ذلك عمدًا، يختبرُ ردَّ فعلي، لحظة... وجهي... هالتي... هل يظنُّني من المغولِ؟ بئسًا بئسًا بئسًا أيها الأحمقُ الأنثوي، أنظرْ إلى شعرِه الأشقرِ المتموجِ الذي يتدلى كخيوطِ حريرٍ ملطخٍ بالزيتِ، أريدُ سلخهُ حيًا، أريدُ أن أقتلعَ كلَّ خصلةٍ بيديَّ ولو كنتُ في أغلالي.

بِئْسًا لَكَ لا تَقْتَرِبْ مِنْ هَذَا البَابِ العَرِيضِ الَّذِي يَشْبِهُ مِنْجَلًا يَحْصُدُ الأَرْوَاحَ...أَمِّي بِئْسًا لَكِ، لِمَاذَا أَنْجَبْتِنِي بِهَذَا الوَجْهِ...لَوْ فَقَطْ لَمْ تَتَزَوَّجِي ذَلِكَ الوَالِدَ اللَّعِينَ اللَّقِيطَ النَّازِحَ مِنْ كَنَدَا، فَقَطْ لَوْ أَنْتِ تَزَوَّجْتِ ابْنَ عَمِّكِ الفَلَّاحِ...لَكِنَّ الأَمْرَ سَيَحْدُثُ مَرَّةً أُخْرَى...سَتَلْتَصِقُ بِي هَذِهِ العَاهَةُ، هَذَا الوَجْهُ الأَسْيُوِيُّ اللَّعِينُ، لِمَاذَا...إِنَّهُ يَقْتَرِبُ وَيَقْتَرِبُ بِخُطُوَاتٍ تَجْتَاحُ الأَرْضَ..أَقْدَامُهُ تَصْدَحُ عَلَى الخَشَبِ كَصَوْتِ طُبُولِ الحَرْبِ القَدِيمَةِ، وَالاهْتِزَازُ يَنْسَابُ فِي صَدْرِي حَتَّى كَدَتْ عِظَامِي تَتَفَتَّتُ...إِنَّهُ يَهُدُّ الجِسْرَ الخَشَبِيَّ بِأَقْدَامِهِ الثَّقِيلَةِ...مَرْأَى الحَشْدِ فِي الدَّاخِلِ يَزِيدُ الدَّمَ غَلَايَانَا، عُيُونُهُمْ تَتَلَصَّصُ عَلَيَّ كَأَنَّهَا تَقْرَأُ عَقْلِي، وَقَلْبِي يَطْرُقُ قَفَصِي كَأَنَّهُ يُرِيدُ الخُرُوجَ...أَمِّيييي أَرْجُوكِ...أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ حِينَئِذٍ، لَكِنَّ لَمْسَةَ الفَتَاةِ أَرْعَبَتْنِي فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا بِقَرْفٍ...حِدْسِي كَانَ يَقُولُ أَنَّهَا سَتَسْحَقُنِي دَاخِلَ ذَلِكَ المَكَانِ، كُلُّ ذَرَّةٍ فِي جَسَدِي تَصْرُخُ مِنَ الرُّعْبِ...أَرْجُلُهَا المُبْتُورَةُ تَعْبَثُ بِالعَرَبَةِ الغَرِيبَةِ، كَأَنَّهَا تُعْلِنُ عَنْ نِهَايَةِ كُلِّ شَيْءٍ.

.....

هَا قَدْ دَخَلَ العَمْلَاقُ البَوَّابَةَ...أَرْجُوكَ يَا أَنَا لَا أُؤْمِنُ بِأَيِّ إِلَهٍ لَكِنْ سَأَفْعَلُ، قَلْبِي يَئِنُّ، أَنْفَاسِي مُتَقَطِّعَةٌ، وَالعَرَقُ يُغَطِّي كُلَّ وَجْهِي كَأَنَّ الحَيَاةَ نَفْسَهَا تَتَسَاقَطُ مِنِّي...وَشَعَرْتُ بِرَأْسِي يَدُورُ، وَصَوْتُ الرَّجُلِ يَتَفَاقَمُ مِنْ حَنَجَرَتِهِ، هَلْ أَسْقُطُنِي عَلَى التُّرَابِ؟ التُّرَابُ، إِنَّهَا رِمَالٌ صَفْرَاءُ بَالِحَةٌ، تَتَسَلَّلُ بَيْنَ أَصَابِعِي كَزَمَنٍ لَا يَرْحَمُ...وَهَذَا هَلْ هَذَا ثَوْرٌ؟ قُرُونُهُ تَتَلَأْلَأُ فِي ضَوْءٍ شَاحِبٍ، يَتَحَرَّكُ مِثْلَ وَحْشٍ أُسْطُورِيٍّ، وَكُلُّ حَرَكَةٍ لَهُ تَضْغَطُ عَلَى قَلْبِي كَأَنَّهَا تَهْشِمُ كُلَّ شَيْءٍ دَاخِلِي.

نَهَضْتُ بِكُلِّ ذَرَّةِ خَوْفٍ، أَمِّي إِنَّهُ ثَوْرٌ يُلَاحِقُنِي، أَقْدَامِي وَكْتُفِي وَفَمِي وَيَدِي المَرْبُوطَةُ بِإِحْكَامٍ تَصْرُخُ وَلَكِنْ لَا يَسْمَعُهَا أَحَدٌ، كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي كَأَنَّهُ يَزْدَادُ وَحْشِيَّةً، الرِّيَاحُ تَعْصِفُ بِشَعْرِي، وَالظِّلَالُ تَتَرَاقَصُ عَلَى الرِّمَالِ، كُلُّ صَوْتٍ يَقْرَعُ أُذُنِي كَصَفْعَةٍ عَلَى وَجْهِي، هَلِ القَدَرُ يُعَاقِبُنِي بِهَذَا الإِذْلَالِ..إِرْحَمْنِي أَيُّهَا القَدَرُ..بَدَوْتُ مِثْلَ فَزَاعَةٍ تَقْفِزُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَمْ أَدْرِكْ أَنَّ جَسَدِي قَدْ أَطْلَقَ الإِنْذَارَ الأَخِيرَ، أَي أَخِيرٌ، إِنِّي أَمُوتُ سَأُدْهَسُ تَحْتَ أَقْدَامِ هَذَا الحَيَوَانِ، وَكُلُّ نَبْضَةِ قَلْبٍ تَحْفِرُ لِي طَرِيقًا إِلَى الهَلَاكِ.

أَعَعَ...صَوْتُ الطُّبُولِ يَمْزِقُ أُذْنَيَّ كَسِكِّينٍ مَغْمُوسٍ فِي النَّارِ، وَعِظَامِي بَدَأَتْ تَغُوصُ فِي بَحْرٍ مِنَ العَذَابِ الرَّجِيمِ، كُلُّ نَبْضَةٍ فِيَّ كَأَنَّهَا طَعْنَةُ خَنْجَرٍ فِي القَلْبِ...بَدَأْتُ أَتَأَوَّهُ مِثْلَ فَتَاةٍ لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ، أَصْوَاتُ جُرُوحِي تَصْعَدُ مَعَ أَنْفَاسِي وَتَنْغَرِسُ فِي الهَوَاءِ الثَّقِيلِ. ذَلِكَ الثَّوْرُ المَرِيضُ، تِلْكَ الكُتْلَةُ المُسْتَعِرَةُ مِنَ الغَضَبِ وَالأَلَمِ، إِنَّهُ يَتَتَبَّعُ رَائِحَةَ دِمَائِي كَصَيَّادٍ مَسْعُورٍ لَا يَتْرُكُ فَرِيسَتَهُ.

.....

تَوَقَّفْتُ لِلَحْظَةٍ مَا وَرَكَزْتُ بَصَرِي نَحْوَهُ، وَالزَّمَنُ يَتَجَمَّدُ فِي حَدَقَتَيَّ، لَكِنَّ تَعَابِيرِي تُوحِي بِأَنَّنِي سَأَمُوتُ، أَجْسَادُ الجَمِيعِ أَمَامِي كَأَنَّهَا ظِلَالٌ مُتَرَاقِصَةٌ، أَفْوَاهُهُمْ تَهْتِفُ وَعُيُونُهُمْ تَتَرَقَّبُ اللَّحْظَةَ العَشْوَائِيَّةَ وَدُونَ تَمَهُّلٍ، قَفَزْتُ فِي الهَوَاءِ مِثْلَ كَنْغَرٍ وَحْشِيٍّ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ خَوْفَ قَارَاتٍ كَامِلَةٍ، وَرَكِبْتُ فَوْقَ ظَهْرِهِ...كُنْتُ أَنْوِي فَكَّ الرِّبَاطِ بِقُرُونِهِ، لِذَلِكَ حَاوَلْتُ التَّمَسُّكَ بِأَقْدَامِي الجَبَانَةِ، بِئْسًا...إِنَّهُ الجُنُونُ، بَدَأَ يَتَسَلَّلُ إِلَى عُيُونِهِ، سَيَقْفِزُ، سَيَرْكُلُ الهَوَاءَ بِعُنْفٍ مِثْلَ جَبَّارٍ لَا يَعْرِفُ الحُدُودَ.

أَنَا نَاكَازِي البَالِغُ مِنَ العُمْرِ 41، فَعَلْتُ شَيْئًا سَأَنْدَمُ عَلَيْهِ طَوِيلًا...طَعَنْتُ الثَّوْرَ فِي ظَهْرِهِ مِنْ خِلَالِ السِّلْسِلَةِ الَّتِي فِي يَدِي، ثُمَّ اقْتَرَبْتُ مِنْ قُرُونِهِ بِهُدُوءٍ مُسْتَفِزٍّ، وَكُلُّ خَلِيَّةٍ فِيَّ تَحْتَرِقُ وَتَصْرُخُ: "نَاكَازِي أَنْتَ لَهَا" ظَنَنْتُ أَنَّ هَذَا التَّحْفِيرَ سَيُثِيرُ عَزِيمَتِي، لَكِنَّ هَذَا الهَلَعَ سَيَخْنُقُنِي، بِئْسًا...تِلْكَ السِّلْسِلَةُ لَا تَكْسِرُ، حَتَّى قُرُونُهُ لَا تَكْسِرُهَا، وَأَنَا رَاكِبٌ فَوْقَ ظَهْرِهِ مِثْلَ الغَبِيِّ.

الثَّوْرُ يَدُورُ وَأَنَا أَدُورُ، يَتَخَبَّطُ وَيَتَلَوَّى وَأَنَا مِثْلُهُ، وَكُلُّ دَوْرَةٍ تَحْتَ سَمَاءِ هَذَا المَكَانِ كَأَنَّهَا بَحْرٌ مِنَ الرُّعْبِ يَغْمُرُنِي، الجَمِيعُ يَنْصِتُونَ لِصَرَخَاتِي وَهُتَافِي وَضَحِكَاتِي الَّتِي تَخْتَنِقُ فِي حَلْقِي، أَنَا...لَقَدِ انْتَهَيْتُ، ظَلِلْتُ أَطْعَنُهُ بِالسِّلْسِلَةِ حَتَّى خَارَتْ أَنْفَاسُهُ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَسْلِمُ أَبَدًا عَنِ الحَرَكَةِ بِجُنُونٍ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ فِي جَوْفِهِ أَلْفَ عَاصِفَةٍ تَحْتَدِمُ فِي رُوحِهِ.

لَكِنْ مَا أَبْطَأَ هَذَا الهَيْجَانُ، هُوَ لَعَابِي الَّذِي سَالَ عَلَى عَيْنَيْهِ بِبُطْءٍ مُقْرِفٍ، بِئْسًا، هَذَا مَنْظَرٌ يُثِيرُ القَشْعَرِيرَةَ، جِدًّا، لَقَدْ أَنْهَكَنِي الصُّمُودُ أَمَامَ الدَّوْرَانِ الْمُمِيتِ الَّذِي يَفْتِكُ بِالْجَسَدِ وَالرُّوحِ مَعًا، فَتَمَدَّدْتُ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَعَيْنَايَ تَتَفَحَّصَانِ عَيْنَيْهِ بِوُقَاحَةٍ،

كَأَنِّي أَقْرَأُ أَفْكَارَ وَحْشٍ غَاضِبٍ يَتَشَبَّثُ بِالْحَيَاةِ. ابْتَسَمْتُ لَهُ ابْتِسَامَةً تَكْتَنِفُهَا السَّعَادَةُ اللَّحْظِيَّةُ، مُزِيجٌ مِنَ الْجُنُونِ وَالْمَرَحِ، ثُمَّ بَصَقْتُ فِي عَيْنَيْهِ بِسُخْرِيَّةٍ مُخْتَلِطَةٍ بِالْخَطَرِ.

الجَمِيعُ ضَحِكَاتُهُمْ غَمَرَتِ الْجَوَّ، ارْتَجَفَ الْهَوَاءُ مِنْ صَخَبِهَا، لَكِنَّ عُيُونَ شَخْصٍ مَا لَفَتَتْنِي، عُيُونُ عَجُوزٍ ثَاقِبَةٌ، بِجَانِبِهِ فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ، شَعْرُهَا الأَسْوَدُ مُتَطَايِرٌ، عَيْنَاهَا تَلْمَعَانِ بِالدَّهْشَةِ وَالْحَذَرِ مَعًا. نَطَقْتُ وَكُنْتُ شَبِهَ وَاعٍ حِينَئِذٍ: "فِكْتُورِيَا..."، فَارْتَجَفَ قَلْبِي مِنْ وَقْعِ الاِسْمِ، وَكَأَنَّ الرُّعْبَ وَالْفُضُولَ اجْتَمَعَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

••••••••••

ذَلِكَ الْعَجُوزُ أَطْلَقَ بَعْضَ كَلِمَاتٍ لِحَاشِيَتِهِ بِصَوْتٍ حَادٍ، وَفَجْأَةً تَوَقَّفَ الثَّوْرُ عَنِ الْحَرَكَةِ، صَمْتٌ رَهِيبٌ يَكْتَنِفُ الْمَكَانَ، إِنَّهُ مَيْتٌ بِالْفِعْلِ، جَسَدُهُ الضَّخْمُ مُمدَدٌ بِلَا حَرَاكٍ، وَلَكِنَّ النَّبْضَ الرَّمْزِيَّ لَمْ يَزَلْ فِي أَعْمَاقِ الْمَكَانِ، كَأَنَّ رُوحَ الْوَحْشِ تَتَنَاثَرُ فِي الْهَوَاءِ. تِلْكَ الْفَتَاةُ الصُّهْبَاءُ مَا زَالَتْ تَرْمِقُنِي بِنَظَرَاتٍ عَجِيبَةٍ، مُشْرِقَةٌ بِالْفُضُولِ وَالرِّيبَةِ، وَأَنَا أُعَانِقُ قُرُونَ الثَّوْرِ بُلُوعٍ، كَأَنِّي أُعَانِقُ مَصِيرِي الْمَجْهُولَ، كَأَنِّي أَحْتَضِنُ قُوَّةً دَفِينَةً فَجَرَتْ فِي هَذَا الْيَوْمِ، قُوَّةً كَانَتْ تُرَاقِبُنِي مُنْذُ الْبِدَايَةِ.

الفصل الخامس: اختناق

نَاوِلْنِي القَلَمَ، سَأُنْهِيكُمْ أَيُّهَا المَجَانِينُ. كَانَ صَوْتُ احْتِكَاكِ القَلَمِ بِالوَرَقِ يُمَزِّقُ أَعْصَابِي وَيُشْعِلُ فِي دَاخِلِي جُنُونًا مُتَدَفِّقًا، وَلَكِنِّي وَاصَلْتُ الكِتَابَةَ بِحُرُوفٍ عَرِيضَةٍ كَأَنَّهَا صَرْخَاتُ دَمٍ: «اللَّعْنَةُ عَلَيْكُمْ جَمِيعًا فَرْدًا فَرْدًا، أَنَا لَسْتُ مَغُولِيًّا بَرْبَرِيًّا!».

رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ الحَارِسَ يَتَطَلَّعُ إِلَيَّ، مُبْتَسِمًا بِمَكْرٍ خَافِتٍ، كَأَنَّ ضَحْكَتَهُ تَنْسِلُّ إِلَى صَدْرِي كَسِهَامٍ سَامَّةٍ. وَفَجْأَةً، سَمِعْتُ صَوْتَ قَرْقَعَةِ سَيْفٍ يَشُقُّ جَوْفَ الزَّنْزَانَةِ كَزَمْجَرَةِ وَحْشٍ يَسْتَعِدُّ لِلِافْتِرَاسِ.

قُلْتُ مُتَذَمِّرًا: بُؤْسًا، مَا هَذَا الجُنُونُ؟ أَيُّهَا القَوْمُ، دَعُونِي أَنَامُ قَلِيلًا... وَلَكِنَّ ظِلًّا مُهَابًا تَقَدَّمَ نَحْوِي. إِنَّهُ العَجُوزُ... قَدْ عَلِقْتُ مَعَهُ جِدًّا الآنَ. كَانَ يَخْطُو بِبُطْءٍ، وَكُلَّمَا تَرَاجَعْتُ خَطْوَةً تَقَدَّمَ هُوَ أُخْرَى، وَأَعْيُنُنَا تَتَشَابَكُ كَأَنَّهَا سُيُوفٌ مُسَلَّطَةٌ.

••••••••••

وَفَجْأَةً، أَمْسَكَ رَقَبَتِي بِقُبْضَةٍ حَدِيدِيَّةٍ، وَأَدْنَى أَنْفَهُ لِيَشُمَّ رَائِحَتِي، كَأَنَّهُ يَفْحَصُ فَرِيسَةً قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِسَهَا. صَرَخْتُ بِغَضَبٍ وَقُلْتُ: أَبْعِدْ يَدَيْكَ عَنِّي أَيُّهَا القَذِرُ! قُلْتُهَا بِاليَابَانِيَّةِ تَحَايُلًا، حَتَّى لَا يَفْرُغَ فِي صَدْرِي ذَلِكَ السَّيْفُ بِلَحْظَةٍ. لَكِنَّهُ شَكَّ فِي أَمْرِي، فَابْتَسَمْتُ لَهُ ابْتِسَامَةً مُسْتَفِزَّةً، فَازْدَادَ حَنَقُهُ، وَازْدَادَ قَلْبِي ارْتِجَافًا كَأَنَّهُ طَبُولُ مَعْرَكَةٍ تُقْرَعُ فِي جَوْفِي.

لَكِنَّ عَيْنَيْهِ كَانَتْ تَرْسُمَانِ فِي عَقْلِي غَيْمَةً مِنَ الحَيْرَةِ، كَأَنَّهُ كَشَفَ فِيَّ سِرًّا مَطْمُورًا، أَوْ كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ فَكَّ طَلَاسِمِ وَجْهِي المُثْقَلِ بِالجِرَاحِ. وَجْهِي حِينَئِذٍ كَانَ صَحِيفَةً مَجْنُونَةً، تَخُطُّهَا كُلُّ طَعْنَةٍ وَكُلُّ كَدْمَةٍ، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ تَتَجَلَّى ابْتِسَامَةٌ حَقِيرَةٌ، ابْتِسَامَةٌ أَشْبَهُ بِقِناعٍ مَشْقُوقٍ يَخْفِي وَرَاءَهُ بُحُورًا مِنَ العَجْزِ وَالهَوَانِ.

وَقَدْ لَا أَدْرِي لِمَاذَا أَكْثَرْتُ مِنَ الشَّتَائِمِ وَالأَلْفَاظِ القَذِرَةِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، رُبَّمَا كَانَتْ سِتَارًا أَسْتُرُ بِهِ رُعْبِي، أَوْ جُنُونًا أُهَدِّئُ بِهِ ارْتِعَاشَاتِ قَلْبِي. لَكِنَّهُ هُوَ، ذَلِكَ العَجُوزُ، كَانَ يَقْتَرِبُ مِنِّي بِخُطًى مُثْقَلَةٍ بِالهَيْبَةِ، كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْهُ كَأَنَّهَا تُزَلْزِلُ الأَرْضَ تَحْتِي، حَتَّى وَقَفَ أَمَامِي، وَقَالَ بِصَوْتٍ غَلِيظٍ: "كَيْفَ تَعْرِفُ فِكْتُورْيَا؟"

اهْتَزَّ صَدْرِي، وَتَجَمَّدَتْ أَطْرَافِي، وَتَدَافَعَتِ الأَسْئِلَةُ فِي رَأْسِي كَعَاصِفَةٍ مُحْرِقَةٍ. فِكْتُورْيَا؟ مَنْ فِكْتُورْيَا؟ ثُمَّ تَدَفَّقَتِ الذِّكْرَى كَالسَّيْلِ، وَيَا لَيْتَهَا مَا دَفَقَتْ. نَعَمْ، تِلْكَ اللَّحْظَةُ البَائِسَةُ حِينَ تَفَوَّهْتُ بِاسْمِ ابْنَتِهِ دُونَ وَعْيٍ. يَا لَغَبَائِي، كَيْفَ أَطْلَقْتُ لِسَانِي بِكَلِمَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ مِفْتَاحَ مَقْبَرَتِي؟

أَهِيَ ابْنَتُهُ حَقًّا؟ تِلْكَ الفَتَاةُ العَجِيبَةُ الَّتِي رَأَيْتُهَا؟ وَإِذَا كَانَتْ هِيَ، فَلِمَ يَبْدُو أَقْبَحَ وَأَظْلَمَ مِنْهَا؟

اسْتَمْرَرْتُ أُلَوِّحُ بِيَدَيَّ المُشَوَّهَتَيْنِ نَحْوَهُ، كَأَنِّي أُحَاوِلُ صَرْفَهُ أَوْ إِغْرَاءَهُ، وَلَكِنَّنِي فِي قَرَارَةِ نَفْسِي أَعْرِفُ أَنَّهُ بَصَدَدِ التَّهَامِي. ثُمَّ تَحَدَّثْتُ بِصَوْتٍ مَخْنُوقٍ: "تِلْكَ المَرْأَةُ ذَكَرَتِ اسْمَهَا أَمَامِي."

فَارْتَسَمَتْ نَارٌ فِي عَيْنَيْهِ، وَصَاحَ: "أَيُّ امْرَأَةٍ؟"

فَجَاءَ رَدِّي مُتَحَدِّرًا مِنْ حَلْقِي كَسَيْفٍ يَقْطَعُ الهَوَاءَ: "المَقْطُوعُ رَأْسُهَا...

تِلْكَ الْمَرْأَةُ الْمُتَعَجْرِفَةُ سَلَبَتْ حُرِّيَّتِي بِرَمْشَةِ عَيْنٍ مِنْهَا.. يَا لَهَا مِنْ مَخْلُوقٍ فَظِيعٍ تِلْكَ الْأُنْثَى الْفَاتِنَة....

أَخْبِرْنِي مَنْ هِيَ فِيكْتُورِيَا بِضَبْطٍ يَا نَازَاكِي أَنْتَ تَعْرِفُهَا جَيِّدًا صَحِيحٌ

أَنَا لَا أَعْرِفُ حَقًّا هَلْ أَعْرِفُهَا أَمْ لَا

هَلْ أَعْرِفُ نَفْسِي أَمْ لَا وَ أَيْنَ أَنَا بِضَبْطٍ... لِمَاذَا أَنَا هُنَا قَدْ كُنْتُ وَاقِفًا هُنَاكَ عَلَى مُقَرَّبَةٍ مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْبَاسِقَةِ كُنْتُ أَتَأَمَّلُ الْوُجُودَ وَ رَائِحَةَ الْمَوْتِ تُدَاعِبُنِي مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .. ..أَمَامَ قَصْرِ نَتِنٍ وَ مَشْهَدٍ فَظِيعٍ وَ وُجُوهٍ مُلَوَّنَةٍ بِالْجُوعِ وَ الْمَرَضِ... هَلْ أَعْرِفُكَ.. أَنَا لَا أَعْرِفُ وَ لَا أَعْرِفُ مَنْ يَعْرِفُكَ

أَنَا مُجَرَّدٌ مِنَ الذِّكْرَى وَ مِنَ الذَّاتِ وَ مِنَ اللَّحْظَةِ... أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي قَضَى نَحْبَهُ يَبْحَثُ عَنْ الْأَمَانِ... وَ السَّلَامِ.. فَأَوْدَعَنِي هَذَا الْوَهْمُ فِي شِرَاكِ الْوَاقِعِيَّةِ.. تَزَوَّجْتُ ثُمَّ أَنْجَبْتُ ثُمَّ بَعْدَ 20 سَنَةً تَرَكْتُ زَوْجَتِي وَ بَنَاتِي فِي مُسْتَوْدَعٍ مَدْفُونٍ فِي الْغُبَارِ وَ مَضَيْتُ أَسْعَى إِلَى مَا لَا أَعْرِفُ نِهَايَتَهُ... تَلْفَحُنِي النَّظَرَاتُ بِسُمِّهَا وَ الْكَلِمَاتُ تَقْوِضُنِي بِعَبِيرِهَا الْمُرِّ فَلَا أَهْتَمُّ... هَجَرْتُ ابْنَتِي الثَّانِيَةَ... لَمْ أَهْجُرْهَا تَرَكْتُهَا بِجَانِبِ سَلَّةِ مَهْمَلَاتٍ فِي مَطْعَمٍ مَا ثُمَّ عَطَفْتُ الْمَمَرَّاتِ بِقَدَمِي وَ لَطَّخْتُ السَّمَاءَ بِسَوَادِ قَلْبِي وَ شَرِبْتُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ.. وَ اسْتَلْقَيْتُ بِجَانِبِ جُثَّةِ شَخْصٍ لَا أَعْرِفُهُ... تَمْحَصُنِي الذِّكْرَيَاتُ النَّائِيَةُ..

أَتَذَكَّرُ أَتَذَكَّرُ نَعَمْ أَتَذَكَّرُ انْقِبَاضَةَ حَوَاسِهَا.. عِنْدَمَا قَابَلْتُهَا دُونَ ابْنَتِنَا... دُونَ ذَلِكَ الثَّمَنِ الَّذِي دَفَعْنَاهُ... مُقَابِلَ الْأَلَمِ... تَرَكْتُ ابْنَتِي وَ ابْتَسَمْتُ فِي وَجْهِ أُمِّهَا لِذَلِكَ نَانَاشِي سَمَّيْتُهَا بِالْمُنَشَرِّدَةِ.. تَعَانَقُهَا الْخِيَانَةُ وَ الْحُمَّى الْآكِلَةُ لِلصُّدُورِ... وَ سَمَّيْتُهَا بِالْوُرُودِ... نَذَرْتُ لَهَا الْقَلَائِدَ ثُمَّ تَرَكْتُهَا تَبْكِي مُغْتَاظَةً مِنْ وُجُودِهَا الْمَشْؤُومِ..... تَرْضَعُ بِثَدْيِهَا الْمُتَوَرِّمِ مِيلِيسِيَا وَ ثَدْيُهَا تَضَرَّرَ مِنْ فِرَاقِ رَضِيعِهَا الْآخَرِ

وَ أَنَا وَ أَنَا أَكْتُبُ بَعْدَ مُرُورِ سَاعَتَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ... فِي هَذَا الْمَكَانِ الْحَزِينِ... الْجُدْرَانُ تَرْوِي اِمْتِعَاضَهَا الْبَائِسَ وَ الْأَرْضِيَّةُ تَهْمِسُ بِقِصَّةٍ مُحَرَّمَةٍ عَنِّي

وَ أَنَا أَكْتُبُ... لَمْ أَجِدْ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّاحَةَ الْمَنْشُودَةَ

بَعْدَ أَنْ غَادَرَ الْعَجُوزُ وَ فِي يَدِهِ كَرَامَتِي.. وَ فِي عَيْنَيْهِ لَذَّةٌ لَا تَنْضَبُ مِنْ إِنْسَانِيَّتِي

أَنَا نَازَاكِي فِي هَذَا الْفِرَاشِ أَمُوتُ وَ رُوحِي تَثِبُ فَوْقَ الْجَحِيمِ نَفْسِهِ.. لَقَدْ دَنَسْتُ دَمِي بِأَسْرَارِ قَارَّاتٍ عِدَّةٍ وَ الْآنَ أَوْرِثُ هَذَا الْعَارَ لِتِلْكَ الصَّفَحَاتِ الْغَرِيبَةِ...

وُلِدْنَا عُرَاةً مِنَ الرَّحْمَةِ.. وَ فُطِرْنَا عَلَى الْخَيْبَةِ وَ شَهِدْنَا كَوَابِيسَ الْمُلُوكِ وَ الْمَلِكَاتِ..

مَنْ فِيكْتُورِيَا يَا أَخِي؟.. أَهِيَ نَجْمَةٌ نَاضِجَةٌ أَمْ مُجَرَّدُ هَلُوسَةٍ تُوضَعُ فِي الطَّعَامِ..

مَنْ أَنَا يَا أَخِي... مَنْ؟ مَنْ سَيُشَارِكُنِي الْقَمِيصَ الْمُتَّسِخَ .. أَخْبِرْنِي ؟

فِي هَذَا الْمَجَلَّدِ أَكْثَرْتُ مِنْ طَرْحِ السُّؤَالِ عَلَى نَفْسِي... مَنْ أَنَا ؟... وَجْهِي لَمْ يَتَغَيَّرْ حِينَئِذٍ... فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ الَّذِي اِبْتَلَعَنِي دَفْعَةً وَاحِدَةً وَ أَمْطَرَنِي بِقُبَلَاتٍ مِنْ قُمْطَرِيرٍ رَكَعَتْ لِلظِّلَالِ وَ وُشِمَتْ ذِرَاعِي بِلاَعْنَةِ الْهَوَانِ... جَرَحْتُ إِصْبِعِي بِالْفَحْمِ وَلَكِنَّنِي مَازِلْتُ أَكْتُبُ بِشَغَفٍ حَارِقٍ... لَيْسَ شَغَفُ التَّسَلُّقِ نَحْوَ الْجِبَالِ بَلْ هُوَ شَغَفُ الْهُبُوطِ... لِلْنَّجَاةِ

النَّجَاةُ

اِعْتَرِفْ

لَنْ أَعْتَرِفَ

أَيُّهَا الْهَمْجِيُّ اِعْتَرِفْ وَ إِلَّا خَلَعْنَا كُلَّ عِظَامِكَ

بِمَاذَا سَأَعْتَرِفُ

بِأَنَّكَ جَاسُوسُهُمْ

لِمَاذَا أَنْتُمْ مُتَأَكِّدُونَ لِهَذِهِ الْدَّرَجَةِ... أَيْنَ دَلِيلُكُمْ

وَجْهُكَ هُوَ الدَّلِيلُ وَ أَيْضًا تِلْكَ الْكَلِمَاتُ الْغَرِيبَةُ

تِلْكَ أَيُّهَا الْمُتَخَلِّفُ حُرُوفٌ عَادِيَّةٌ.. أَنْتَ عُنْصُرِيٌّ قَذِرٌ

مَاذَا قُلْتَ أَخْبِرْنِي.. تَحَدَّثْ أَمَامِي.. لَا تَشُحَّ بِنَظَرِكَ بِعِيدًا أَيُّهَا الْغَرِيبُ

لَسْتَ غَرِيبًا

كَيْفَ تَعْرِفُ فِيكْتُورِيَا

قُلْتُ لَكُمْ

بَئْسًا لَكَ أَيُّهَا الْكَاذِبُ... أَنْتَ تَكْذِبُ

أَنَا لَا أَكْذِبُ

إِذَنْ لِمَاذَا تَبْكِي مِثْلَ الْأَحْمَقِ....

لِأَنَّكُمْ لَا تُصَدِّقُونَنِي أَيُّهَا الْمَلَاعِينُ.. أَنْظُرْ إِلَى وَجْهِي لَقَدْ أَصْبَحَ مُرْتَعًا لِأَظَافِرِكُمْ الْحَادَّةِ...

نَازَاكِي اِعْتَرِفْ... أَرْجُوكَ

لَنْ أَعْتَرِفَ لَنْ أَعْتَرِفَ لَنْ أَعْتَرِفَ وَ إِنْ سَلَخْتُم جِلْدِي ثُمَّ سَكَبْتُمُ الْمَاءَ الْمَغْلِيَّ عَلَيَّ لَنْ أَبِيعَ كَرَامَتِي مَرَّةً أُخْرَى... لَنْ أَتَنَازَلَ عَنْ نَفْسِي لَيْسَ الْآنَ لَنْ أَفْعَلَهَا مَرَّةً أُخْرَى

نَازَاكِي أَيُّهَا الْجَرْذُ الْعَنِيدُ اِعْتَرِفْ وَ سَوْفَ تَمُوتُ بِالْفِعْلِ مَيْتَةً تَلِيقُ بِعِنَادِكَ... فِي النِّهَايَةِ سَتَمُوتُ لِمَاذَا لَا تُرِيدُ إِنْهَاءَ الْأَمْرِ

لَنْ أُنْهِي..

اِتْرُكْهُ إِنَّهُ يَحْتَضِرُ بِالْفِعْلِ.. اِتْرُكْهُ وَ جَرِّدْهُ مِنْ مَلَابِسِهِ سَيَنَامُ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ اللَّزِجَةِ مَرَّةً أُخْرَى

أَيُّهَا الْغَبِيُّ الْأَنَانِيُّ...

أَنَا لَنْ أَعْتَرِفَ... فِيكْتُورِيَا فِيكْتُورِيَا أَيَّتُهَا الْعَاهِرَةُ الصَّغِيرَةُ... أَيُّهَا الْمُتَمَلِّقَةُ الْكَبِيرَةُ لَقَدْ أَسِرْتُ بِسَبَبِكِ فِي هَذَا الْكَابُوسِ... أَتَسْمَعِينَنِي... بِسَبَبِكِ بِسَبَبِكِ أَيَّتُهَا الْأُمِيرَةُ الْمُدَلَّلَةُ... أَنَا لَا أَعْرِفُكِ وَ أَنْتِ لَا تَعْرِفِينَنِي... لِمَاذَا لَا تَتَفَوَّهِينَ بِكَلِمَةٍ لِإِنْقَاذِي مِنْ هَذَا الْعَذَابِ.....
أَيَّتُهَا الْثَّرِيَّةُ الْمُتَغَطْرِسَةُ سَأَقْتُلُكِ سَأَ سَأَ سَأَقْتُلُكُمْ

نَازَاكِي نَمْ أَرْجُوكَ... نَمْ وَ كَفَّى صُرَاخًا.. لَنْ يَسْمَعَكَ أَحَدٌ عَلَى مَا أَظُنُّ

لَنْ أَنَامَ أَعِيدُونِي إِلَى زَوْجَتِي... أُرِيدُ زَوْجَتِي مَابِيلْ مَابِيلْ عَزِيزَتِي أَعِيدُونِي إِلَى بَيْتِي... أُرِيدُ بَيْتِي بَئْسًا بَئْسًا بَئْسًا بَئْسًا بَئْسًا بَئْسًا بَئْسًا أَنَا لَا أَسْتَحِقُّ هَذَا أَنَا أَنَا أَنَا سَأَجُنُّ سَأَجُنُّ أُمِّي أَبِي نَانَاشِي مِيلِيسِيَا أَرْجُوكُمْ حَرِّرُونِي.

اِخْرِسْ اِخْرِسْ

مَنْ مَنْ مَابِيلْ عَزِيزَتِي

شَعَرْتُ بِصَفْعَتِهَا الْخَانِقَةِ عَلَى وَجْهِي...

فِيكْتُورِيَا فِيكْتُورِيَا ابْنَتِي اِتْرُكِيهِ

أَبِي سَأَخُذُهُ مَعِي

صَفْعَةٌ تِلْوَ الْأُخْرَى.... وَ كَانَ لُعَابُهَا يَتَطَايَرُ فِي الظَّلَامِ الْكَثِيفِ وَ وَجْهِي قَدْ أَصْبَحَ كُتْلَةً مِنَ اللَّحْمِ الْمُشَوَّهِ...

اِخْرِسْ اِخْرِسْ أَوْ لِتُمْتَ كَرَجُلٍ لَا تَصْرُخُ مِثْلَ النِّسَاءِ

خَائِنَةٌ خَائِنَةٌ حَقِيرَةٌ

جَذَبْتَنِي مِنْ شَعْرِي وَ طَبَعْتُ قُبْلَةً عَلَى رَأْسِي...

الفصل السادس: عودة إلى البيت

إِرْكَعِ ٱلْآنَ.

فِكْتُورِيَا!

ٱرْتَجَّ ٱلْمَكَانُ بِصَرَامَةِ صَوْتِهَا، وَتَرَدَّدَتْ ٱلْكَلِمَاتُ فِي جُدْرَانِ ٱلْقَصْرِ ٱلْعَتِيقِ.

لَا يَا أَبِي - قَالَتْ بِغُرُورٍ - يَجِبُ عَلَى هَذَا ٱلْبَرْبَرِيِّ أَنْ يَفْهَمَ وَضْعَهُ جَيِّدًا.

أَجَبْتُهَا وَأَنَا أَشْعُرُ بِرِيحٍ بَارِدَةٍ تَلْسَعُ جُرْحِي: لَنْ أَرْكَعَ.

ٱنْحَنَتْ بِوَجْهٍ مُتَجَهِّمٍ وَهَمَسَتْ بِغِلٍّ: بَلْ سَتَرْكَعُ رَغْمًا عَنْكَ أَيُّهَا ٱلْأَحْمَقُ.

ثُمَّ ٱنْدَفَعَتْ كَسَهْمٍ، وَٱنْتَزَعَتْ سَيْفَ ٱلْحَارِسِ بِحِدَّةٍ. صَوْتُ ٱلْحَدِيدِ وَهُوَ يُسْحَبُ مِنْ غِمْدِهِ أَشْعَرَ ٱلْحُضُورَ بِرُعْبٍ كَامِنٍ. وَبِضَرْبَةٍ سَرِيعَةٍ ٱخْتَرَقَ ٱلسَّيْفُ قَدَمِي. صَرَخَ ٱلْجُرْحُ قَبْلِي، وَتَفَجَّرَتْ دِمَائِي كَسَيْلٍ أَحْمَرَ، تَنْبُضُ عَلَى ٱلْأَرْضِيَّةِ ٱلرُّخَامِيَّةِ.

لَكِنِّي، وَبِكُلِّ مَا فِيَّ مِنْ بَقَايَا قُوَّةٍ، ضَغَطْتُ عَلَى ٱلْجُرْحِ وَٱنْتَصَبْتُ كَأَنِّي جَبَلٌ يَرْفُضُ ٱلِٱنْهِدَامَ. أَعْيُنُهَا ٱتَّسَعَتْ، وَٱحْمَرَّ وَجْهُهَا بِغَيْظٍ كَأَنَّ نَارًا تَأْكُلُهَا مِنَ ٱلدَّاخِلِ.

لَمْ أَرْكَعْ بَعْدَ تَشْرِيحِهَا لِقَدَمِي، لَمْ أَرْكَعْ.

رَغْمَ أَنِّي أَسْمَعُ صَوْتَ ٱلْمَوْتِ يُهَمْهِمُ فِي أُذُنِي، وَأَشْعُرُ بِظِلِّهِ يَتَدَثَّرُنِي، وَقَفْتُ وَٱبْتَسَمْتُ. ٱبْتِسَامَةٌ كَانَتْ مِزَاجًا بَيْنَ ٱلْوَدَاعَةِ وَٱلْجُنُونِ.

أُرِيدُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا رَجُلٌ. رَجُلٌ لَا يَخْضَعُ، وَلَا يَسْمَحُ لِعُيُونٍ مُتَطَفِّلَةٍ أَنْ تَتَذَوَّقَ ضَعْفَهُ.

تَصَبَّبَ وَجْهُهَا ٱلْكِرِيسْتَالِيُّ بِقَطَرَاتٍ صَافِيَةٍ مَمْزُوجَةٍ بِٱلرُّعْبِ، وَيَدَاهَا ٱرْتَعَشَتْ وَقَدِ ٱصْطَبَغَتْ بِلَوْنِ دَمِي ٱلْقَانِي. مَلَابِسُهَا ٱلْمُزَيَّنَةُ بِٱلذَّهَبِ فَقَدَتْ بَهْجَتَهَا بَعْدَ أَنْ لَطَّخَهَا ٱلْقَانِي ٱلْفَاقِعُ.

وَذٰلِكَ ٱلْعَجُوزُ، ٱلَّذِي جَلَسَ عَلَى ٱلْعَرْشِ، كَانَ يَعْضُضُ شَفَتَيْهِ وَيَشُدُّ عَلَى قُبْضَتِهِ حَتَّى تَشَقَّقَتْ عُرُوقُهُ. كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرُخَ بِكَلِمَاتٍ مُهِينَةٍ أُخْرَى، لَكِنَّهُ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَٱكْتَفَى بِمُشَاهَدَةِ ٱلْمَشْهَدِ ٱلْمُلْتَهِبِ.

وَبَيْنَمَا ٱلصَّمْتُ يَسُودُ ٱلْمَكَانَ، ٱخْتَرَقَتْ أَشِعَّةُ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُتَسَلِّلَةُ مِنْ شُقُوقِ ٱلسَّقْفِ ٱلْمُتَصَدِّعِ ٱلظُّلْمَةَ.

رَفَعْتُ رَأْسِي، وَشَعَرْتُ بِٱلْحَرَارَةِ تَلْمَسُ جِلْدِي، فَضَحِكْتُ ضَحِكَةً مُرَّةً:

إِنَّهَا ٱلشَّمْسُ... شَمْسُ ٱلصَّبَاحِ.

صَبَاحٌ آخَرُ، وَلَكِنَّهُ آخِرُ صَبَاحٍ أَرَاهُ.

أَنَا يابانِيٌّ بَائِسٌ... وَرِثْتُ مِنْ أَجْدَادِي الْعِنَادَ الْمُتَحَجِّرَ، لَا يَلِينُ وَلَا يَنْكَسِرُ، كَصُخُورٍ أَبَتْ أَنْ تَنْصَهِرَ رَغْمَ النَّارِ.

وَالْآنَ، سَيُرْسَمُ مَوْتِي بِيَدِ فَتَاةٍ لَا تَعْرِفُ حَتَّى كَيْفَ تَحْفَظُ تَوَازُنَهَا فِي خُطُوَاتِهَا الْمُرْتَعِشَةِ... أَيُّ سُخْرِيَّةٍ هَذِهِ؟

رَفَعْتُ يَدِي الْمُثْقَلَةَ، وَمَرَّرْتُ أَصَابِعِي بَيْنَ خُصْلَاتِ شَعْرِي الْمُلَبَّدَةِ بِضَبَابِ الْعُمْرِ. صَارَ رَمَادِيًّا، كَأَنَّ كُلَّ شَعْرَةٍ مِنْهُ تَحْمِلُ نَدْبَةً مِنَ الْمَاضِي.

اَلزَّنْزَانَةُ حَوْلِي لَمْ تَكُنْ جُدْرَانًا فَحَسْبْ، بَلْ جَحِيمًا لِلْأَحْيَاءِ؛ جُدْرَانُهَا تَنْزِفُ بُرُودَةً، وَأَرْضُهَا تَبْتَلِعُ أَنْفَاسَكَ كُلَّمَا حَاوَلْتَ أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنَّكَ مَا زِلْتَ إِنْسَانًا.

قَلْبِي مَا زَالَ يَرْفُضُ الصُّمُوتَ. فِي صَدْرِي تَخْتَلِجُ أَرْوَاحٌ كَثِيرَةٌ تَصْرُخُ، كَأَنَّهَا تَجُرُّنِي مَعَهَا نَحْوَ مَصِيرِي. اِلْتَفَتُّ إِلَى الْحَائِطِ، وَاسْتَنَدْتُ عَلَيْهِ كَصَفْحَةِ وَرَقٍ مُنْهَكٍ، قَاوَمَتِ الرِّيَاحَ حَتَّى تَمَزَّقَتْ.

رَفَعْتُ بَصَرِي نَحْوَ وُجُوهِهِمْ... وُجُوهٌ غَائِمَةٌ، غِلَاظٌ تَعَوَّدُوا عَلَى مَشْهَدِ النَّحْرِ، كَأَنَّ الذَّبْحَ عِنْدَهُمْ طَقْسٌ اِحْتِفَالِيٌّ. تَسَاءَلْتُ فِي سِرِّي: هَلْ أَنَا خَطِيرٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ؟

ضَحِكْتُ بِمَرَحٍ مُصْطَنَعٍ، وَقُلْتُ بِصَوْتٍ مَجْرُوحٍ:

"فِكْتُورِيَا... حَادِثَةُ الْجَزِيرَةِ. كُنْتُ هُنَاكَ بَيْنَ جُنُودِ أَبِيكِ، سَمِعْتُ اِسْمَكِ يَتَرَدَّدُ فِي فَوْضَى الدَّمِ وَالرَّصَاصِ. أَتَعْرِفِينَ لِمَاذَا أَرْفُضُ الْمَوْتَ؟ لِأَنَّنِي سَمِعْتُ الْجُنْدِيَّ الَّذِي

صَوَّبَ سِلَاحَهُ إِلَى صَدْرِي يَتَمْتِمُ بِفَظَاظَةٍ: الْحُرُّ لَا يَعِيشُ حُرًّا فِي مَرْعَاهُ... أَنْتَ مَيِّتٌ، تَقَبَّلْ ذَلِكَ."

اِرْتَجَفَ صَمْتُهُمْ، وَانْكَمَشَتْ مَلَامِحُهُمْ، كَأَنَّ كَلِمَاتِي كَانَتْ خَنْجَرًا فِي صَمِيمِ ذَاكِرَتِهِمْ.

وَاصَلْتُ، وَصَوْتِي يَزْدَادُ سُخْرِيَةً وَنَزِيفًا:

"لَكِنْ عَلَمُ الْإِسْبَانِ أَيْقَظَنِي... كَيْفَ تَحَالَفْتُمْ مَعَهُمْ؟ كَيْفَ سَلَّمْتُمْ جَزِيرَةً كَامِلَةً، لِتَصْفِيَةٍ عِرْقِيَّةٍ وَنَهْبٍ مَشِينٍ، لِتَتَحَوَّلَ هُوِيَّتُهُمْ إِلَى قَاعِدَتِكُمْ الْحَقِيرَةِ؟ نَعَمْ... هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي تَخْشَوْنَهَا.

أَمَّا أَنْتِ... فَلَكِ سِرٌّ آخَرُ. اَلْجَمِيعُ هُنَا يَكْرَهُونَكِ، فِكْتُورِيَا. لِأَنَّكِ الْوَرِيثَةُ الْوَحِيدَةُ... فَتَاةٌ شَقْرَاءُ نَاعِمَةٌ، مُتَلَأْلِئَةٌ بِذَهَبِ الْقَصْرِ، وَلَكِنَّكِ فِي أَعْمَاقِكِ مَفْتُونَةٌ بِالْقُوَّةِ... قُوَّةٌ لَنْ تَحْمِيكِ مِنْ كُرْهِهِمْ وَلَا مِنْ صَرَخَاتِ الضَّحَايَا."

لَمْ أَهْتَمَّ بِمَا سَيَحْدُثُ بَعْدَ كَلِمَاتِي، فَتَقَدَّمْتُ نَحْوَهَا، وَانْتَزَعْتُ السَّيْفَ مِنْ يَدَيْهَا، ثُمَّ دَفَنْتُهُ فِي صَدْرِي بِثِقَلٍ بَارِدٍ.

نَعَمْ، تِلْكَ اللَّحْظَةُ لَا تَغِيبُ عَنِّي، أَتَذَكَّرُهَا كَمَا أَتَذَكَّرُ عُيُونَ "نَانَاشِي" الْمُتَّقِدَةَ... لِأَنَّ صَوْتَ قَلْبِي لَمْ يَرْتَجِفْ أَبَدًا، بَلْ اِزْدَادَ اِحْتِدَامًا، كَأَنَّ عِظَامِي تَتَحَاكَكُ بِلَحْمِي الْمُمَزَّقِ، وَتَصْنَعُ سِيمْفُونِيَّةَ أَلَمٍ مُرْعِبَةٍ.

جَسَدِي أَصْبَحَ مُشَوَّهًا، مُقَزِّزًا، يَجْعَلُ كُلَّ نَاظِرٍ يَشْعُرُ بِغَثَيَانٍ.

وَمَعَ ذَلِكَ... لَمْ أَسْقُطْ.

حَاوَلْتُ أَنْ أَتَّكِئَ عَلَى الْحَائِطِ الْمُتَصَدِّعِ، فَقَطُّ، وَلَكِنْ مَا اِنْحَنَيْتُ. لَمْ أَرْكَعْ، وَلَنْ أَرْكَعَ، وَلَنْ أَرْجِعَ إِلَى الظَّلَامِ مُجَدَّدًا.

اَلْقَلْعَةُ الْمُخَضَّرَةُ تَمَثَّلَتْ أَمَامِي مَرَّةً أُخْرَى، كَأَنَّهَا شَبَحٌ مِنَ الْمَاضِي، تُذَكِّرُنِي أَنَّنِي لَمْ أَعُدْ إِلَى الْحَيَاةِ، بَلْ عُدْتُ إِلَى لَحْظَةِ الْمَوْتِ نَفْسِهَا...

صَرَخْتُ، وَبَكَيْتُ كَطِفْلٍ مَحْرُومٍ مِنْ أُمِّهِ. بَكَيْتُ أَمَامَ تِمْثَالٍ مَطْعُونٍ فِي رَأْسِهِ، وَقَلْبُهُ يُشْبِهُ نَافُورَةً تَنْفَجِرُ مِنْهَا الدِّمَاءُ. كُنْتُ أَنَا ذَلِكَ التِّمْثَالَ، يَجْسُدُنِي، يُحَاكِينِي، وَيَصْرُخُ بِنِيَابَتِي. كَيْفَ لَمْ أَدْرِكْ أَنَّ مَصِيرِي قَدْ نُحِتَ بِإِتْقَانٍ مُنْذُ الْبِدَايَةِ؟

هَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ الْقَلْعَةَ تَعُودُ إِلَيْهِمْ؟ أَمْ أَنَّهَا تَرْفُضُنِي أَنَا؟

لَحَظَاتٌ سَرِيعَةٌ، لَكِنَّهَا مَشْبُوعَةٌ بِالدِّمَارِ. طَعْمُ الْحَدِيدِ يَمْلَأُ لِسَانِي، وَالرِّيَاحُ تُهَذِّبُ خُصَيْلَاتِ شَعْرِي الْفَوْضَوِيِّ، كَأَنَّهَا تُذَكِّرُنِي أَنَّنِي مَا زِلْتُ حَيًّا وَلَكِنْ عَلَى حَافَةِ الْفَنَاءِ.

نَسِيتُ مَنْ أَنَا لِلْحَظَةٍ، غَابَتْ ذَاكِرَتِي كَطَيْفٍ فِي ضَبَابٍ. إِلْتَفَتُّ، وَرَغْبَةٌ مُلِحَّةٌ فِي الْعَوْدَةِ تَعْتَصِرُ قَلْبِي. كُنْتُ أُمْسِكُ كِتَابًا فَارِغًا بِيَدِي، لَمْ أَدْرِ كَيْفَ وَصَلَ إِلَيَّ، وَلَمْ أَسْتَوْعِبْ أَنَّهُ هُوَ الْحَلْقَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ سِلْسَالِ نَسْفِي.

تَجَرَّعْتُ الصَّدْمَةَ بِبُرُودٍ، ثُمَّ تَفَادَيْتُ كُثْبَ الظَّلَامِ كَمَنْ يَتَجَنَّبُ جُرْحًا قَدِيمًا. كُنْتُ هُنَا فِي الصَّبَاحِ، ثُمَّ هُنَاكَ حَيْثُ مَرَّ عِشْرُونَ يَوْمًا... نَعَمْ، عِشْرُونَ بِتَمَامِ قُبْحِهَا وَكَمَالِهَا. وَلَكِنَّ الْيَوْمَ، هَذَا الْيَوْمَ الْمَشْؤُومُ، لَمْ يَمْضِ بَعْدُ. بُؤْسًا لِي، كَيْفَ وَصَلْتُ إِلَى الْبَابِ؟

النَّافِذَةُ مَفْتُوحَةٌ، وَالأَكْيَاسُ الْمُمْتَلِئَةُ بِاللَّحْمِ وَضَعْتُهَا جَانِبًا، ثُمَّ طَرَقْتُ الْبَابَ. فَتَحَتْ «مِيلِيسِيَا»، وَفِي الْخَلْفِ كَانَتْ «مَابِيل» تَرْمُقُنِي بِهَالَتِي الْمُفْجِعَةِ، وَلَكِنَّهَا كَتَمَتْ سُؤَالَهَا الْمُلِحَّ.

زَوَاجِي مِنْ «مَابِيل» كَانَ أَكْثَرَ مَا صَادَفْتُهُ صِدْقًا وَعَشْوَائِيَّةً فِي حَيَاتِي. قَابَلْتُهَا أَمَامَ تِمْثَالِ «فِكْتُورْيَا» نَفْسِهَا، بِشَعْرِهَا الأَسْوَدِ وَجِسْمِهَا الْمَمْشُوقِ. لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً، لَكِنَّ عُيُونَهَا كَانَتْ تَخْتَزِلُ الْعَجَائِبَ كُلَّهَا.

تَزَوَّجْتُهَا بِخَاتَمِ أُمِّي الذَّهَبِيِّ الْمُرَصَّعِ بِيَاقُوتٍ أَحْمَرَ؛ أَثْمَنِ مَا مَلَكَتْهُ عَائِلَتِي. لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى بَيْعِهِ رَغْمَ فَقْرِنَا، فَقَدْ كُنَّا فُقَرَاءَ وَلَكِنَّنَا لا نَرْكَعُ. وَلِذَلِكَ أَصْبَحْنَا هَائِمِينَ دُونَ هُوِيَّةٍ، نُرَدِّدُ أَنَّ «الْحَقَّ لا يُشْتَرَى فِي الأَسْوَاقِ». كُنْتُ أَقُولُ ذَلِكَ كَتَعْوِيذَةٍ لِنَفْسِي، لَعَلَّهُ يُؤْنِسُنِي.

وَقَدْ رَضِيَتْ بِي «مَابِيل»، وَقَالَتْ إِنَّنِي «رَجُلٌ مُقْدَامٌ وَلَكِنْ جَبَانٌ». لَمْ تُجَامِلْنِي، بَلْ رَمَتْ كَلِمَاتِهَا عَلَى وَجْهِي رَمْيًا، وَمَعَ ذَلِكَ... أَحْبَبْتُهَا.

الفصل السابع: حقيقة ناكازي

فِي الخَامِسِ مِنْ دِيسَمْبَرَ،

أَلْقَى الشِّتَاءُ بِحِبَالِهِ البَيْضَاءِ عَلَى الأَجْسَادِ المُبَطَّنَةِ بِالصُّوفِ، وَتَلَأْلَأَتِ الأَرْضُ بِلَوْنٍ فِضِّيٍّ سَاحِرٍ كَأَنَّهَا مَسْرَحٌ لِحُلْمٍ مُتَجَمِّدٍ. كَانَ الهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الثَّلْجِ وَالْخُبْزِ الْمُحْتَرِقِ، وَالْجُدْرَانُ تَرْتَعِشُ مِنْ بَرْدٍ صَامِتٍ يُشْبِهُ رُعْبَ الأَرْوَاحِ.

وَناكَازِي... ذَلِكَ الرَّجُلُ المَجْنُونُ، أَصْبَحَ يَتَهَادَى بَيْنَ طُرُقَاتِ المُسْتَشْفَيَاتِ، يُرَاقِبُ وُجُوهًا تَغِيبُ وَتَظْهَرُ كَأَنَّهُ يَسِيرُ فِي مَمَرٍّ مِنَ الظِّلَالِ. مُنْذُ وُصُولِهِ إِلَى البَيْتِ وَتَصَادُمِهِ العَنِيفِ بِوُجُوهِ عَائِلَتِهِ، لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مَا هُوَ الحَقُّ وَمَا هُوَ الْوَهْمُ.

أُغْمِيَ عَلَيْهِ، وَنُقِلَ إِلَى المُسْتَشْفَى، وَلَكِنَّ كُلَّ تَحَالِيلِهِ الطِّبِّيَّةِ كَانَتْ سَلِيمَةً كَجَسَدٍ يَخْفِي مَرَضًا فِي الرُّوحِ.

أَنْتِ تَكْذِبِينَ، قالها بِصَوْتٍ مُتَشَظٍّ، أَنَا لَسْتُ سَلِيمًا أَيَّتُهَا الكَاتِبَةُ... أَنَا أَمُوتُ بِحَقَارَةٍ.

تَجَمَّدَ الحِبْرُ عَلَى طَرَفِ الأَوْرَاقِ كَأَنَّهُ سَمِعَ اعْتِرَافَهُ.

مَا دَخْلِي؟

لِأَنَّكِ سَطَّرْتِ حَيَاتِي بِقَلَمِكِ الهَمَجِيِّ ذَاكَ.

-أَنَا أُحِبُّ رُؤْيَتَكِ تَعَانِي كَمَا يَعَانِي الفُؤَادُ مِنْ هَجْرِ السَّلَامِ.

أَنَا مَمْدُودٌ عَلَى السَّرِيرِ، مَا نَفْعُ السَّلَامِ الآنَ وَالعَذَابُ يَجْرِي فِي عُرُوقِي؟

الصَّفْحَاتُ البَيْضَاءُ تَتَنَاثَرُ حَوْلَهُ كَأَجْنِحَةِ طُيُورٍ مَقْطُوعَةٍ، وَالْقَلَمُ يَرْتَجِفُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَسِكِّينٍ يَخُطُّ بِهَا مِيزَانَ مَصِيرِهِ.

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، عَادَ نَاكَازِي مِنْ رِحْلَةٍ مُبْهَمَةٍ مَشُوبَةٍ بِالفَرَاغِ؛ لَمْ يَتَسَنَّ لَهُ تَذَكُّرُ مَا حَدَثَ، فَقَطْ ظَلَّ يُهَمْهِمُ بِاسْمِ "فِكْتُورْيَا"، كَأَنَّهُ يَسْتَدْعِي شَبَحًا قَدِيمًا مِنْ أَطْبَاقِ الضَّبَابِ.

زَارَتْهُ زَوْجَتُهُ وَابْنَتُهُ مِيلِيسْيَا لِلِاطْمِئْنَانِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ حَالَتَهُ تَتَدَهْوَرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَأَنَّهُ يَتَفَسَّخُ ببطءٍ تَحْتَ ضَوْءِ الْمَصَابِيحِ البَاهِتَةِ.

كَانَ يَكْتُبُ كَالْمُسْتَنْفَسِ طَعَامًا دَسِمًا، يُدَوِّنُ كُلَّ شَيْءٍ: التَّارِيخَ، الأَخْبَارَ، وَتَفَاصِيلَ بَلاَ مَعْنَى، وَكُلَّمَا سُئِلَ، صَمَتَ كَمَنْ يُخْفِي جَسَدَ جَرِيمَةٍ.

العَائِلَةُ تَنْتَظِرُ مَوْتَهُ... وَهُوَ يَنْتَظِرُ نِهَايَتَهَا.

مَوْتِي قَضِيَّةٌ سَتَحْمِلِينَ إِثْمَهَا أَيَّتُهَا الكَاتِبَةُ.

أَتُحَادِثُنِي؟

أُحَادِثُ عَقْلَكِ، لَيْسَ أَنْتِ. كَيْفَ تُحَرِّفِينَ الأَحْدَاثَ ثُمَّ تَدَّعِينَ البَرَاءَةَ؟ لِمَ تُخْفِينَ كَوْنَكِ مَرِيضَةً مِثْلِي؟

مِثْلَكَ؟

نَعَمْ، أَنَا أُصَارِعُ المَوْتَ بَعْدَ أَنْ عُدْتُ بِالزَّمَنِ إِلَى حُقْبَةِ القَذَارَةِ... العَصْرِ المُتَجَسِّدِ فِي هَيْئَةِ امْرَأَةٍ رَاقِيَةٍ... العَصْرِ الفِكْتُورِيِّ. وَمَاذَا بَعْدُ؟ أَتَجْعَلِينَ مِنْ حَيَاتِي الخَاوِيَةِ مِنَ المَعْنَى أُضْحُوكَةً لِمَنْ هَبَّ وَدَبَّ؟

زَوْجَتُكَ تَنْتَظِرُكَ، وَابْنَتُكَ.

ابْنَتِي؟ مَاذَا؟ وَلَحْظَةً، لِمَ جَعَلْتِينِي آسِيَاوِيًّا بَغِيضًا؟ أَتَكْرَهِينَنَا؟

لا أَتَحَدَّثُ مَعَ الجُبَنَاءِ.

لِتُحَادِثِيهِمْ إِذًا... هَيَّا، أَخْبِرِيهِمْ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ بِشَفَقَةٍ مَقِيتَةٍ كَأَنَّنِي تَعَاطَيْتُ الأَفْيُونَ وَعُدْتُ مِنَ الجَحِيمِ!

ظَلَّ يَهْذِي وَالْعَرَقُ يَنْهَمِرُ مِنْ جَبِينِهِ كَقَطَرَاتِ زَئْبَقٍ، وَالظِّلَالُ تَرْقُصُ عَلَى جُدْرَانِ الغُرْفَةِ كَأَشْبَاحٍ تُصَفِّقُ لِانْهِيَارِهِ.

أَبِي...

نَعَمْ، مِيلِيسْيَا؟

لِتَهْدَأْ...

ابْنَتِي، خُذِي المَجَلَّدَ مِنْ يَدِي.

أَبِي، ذِرَاعُكَ مُتَوَرِّمَةٌ مِنَ الكِتَابَةِ، لَقَدْ أَرْهَقْتَ نَفْسَكَ هَذَا الأُسْبُوعَ... بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ لَمْ تَعُدْ كَطَبِيعَتِكَ، وَجَسَدُكَ مَغْطًّى بِالنُّدُوبِ... مِنْ أَيْنَ أَتَتْ؟ أَنْتَ لَمْ تُرِدْ إِخْبَارَنَا، أَيْنَ ذَهَبْتَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ؟

ابْنَتِي، أُرِيدُ أَنْ أَنَامَ. لِتُطْفِئِي النُّورَ، وَخُذِي أُمَّكِ، وَوَجْهُهَا لا يُبَشِّرُ بِخَيْرٍ، وَأَعِيدِي نَاناشِي إِلَى البَيْتِ.

لَكِنْ...

لِتَسْمَعِي كَلَامَ وَالِدِكِ.

أُمِّي... لَكِنْ...

لِنَذْهَبْ، هَيَّا...

غَدًا، مَاتَ نَاكَازِي بِابْتِسَامَةٍ مَخْذُولَةٍ...

نَاكَازِي لَيْسَ بَطَلًا، بَلْ هُوَ وَرِيثُ الدَّمَارِ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَتَحَمَّلِ المَعَانَاةَ... مَعَانَاةً تَخُوضُهَا الإِنسَانِيَّةُ مُنْذُ الصَّرْخَةِ الأُولَى الَّتِي تَنْدَلِعُ مِنْ حَنْجَرَةِ الطِّفْلِ.

مَاتَ مُسْتَلْقِيًا عَلَى جَنْبِهِ الأَيْمَنِ، تَارِكًا زَوْجَةً وَابْنَتَيْنِ تُشَقِّيَانِ الخَرَابَ مِنْ بَعْدِهِ.

الصَّمْتُ بَعْدَ مَوْتِهِ كَانَ أَثْقَلَ مِنَ الحِبْرِ، وَالغُرْفَةُ بَقِيَتْ تَحْتَفِظُ بِرَائِحَةِ أَدْوِيَتِهِ وَآخِرِ أَنْفَاسِهِ.

أَنَا كَاتِبَتُهُ، لَكِنِّي سَفَّاحَتُهُ.

جُمْلَةٌ كَانَتْ كَالصَّفْعَةِ عَلَى وَجْهِ الوُجُودِ. لَكِنَّهَا لَيْسَتِ النِّهَايَةَ...

فِي أَسْفَلِ المَجَلَّدِ، تَتَمَوْجُ كَلِمَةٌ خَطَّهَا بِيَدٍ تَرْتَعِشُ وَقَلْبٍ يَحْتَضِرُ

أَبِي كَتَبَ هَذِهِ الجُمْلَةَ كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ الغَيْبَ نَفْسَهُ...

بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً مِنْ مَوْتِهِ، أَحْمِلُ وَصِيَّةً أَخِيرَةً، أَوْ تِذْكَارًا لِتِلْكَ اللَّحْظَةِ الشَّنِيعَةِ الَّتِي أَسَرَتْ رُوحَهُ.

أَنَا نَانَاشِي، المُلَقَّبَةُ بِـ"المُتَشَرِّدَةِ"، عَزَمْتُ حَمْلَ إِرْثِ أَبِي المَتَوَفَّى فِي ظُرُوفٍ غَامِضَةٍ.

هَذَا المَجَلَّدُ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْ مِائَتَيْ صَفْحَةٍ، مَغْمُورٌ بِالفَوْضَى وَالغُمُوضِ...

كُتِبَتْ فِيهِ كَلِمَاتٌ مُتَقَطِّعَةٌ، وَعِبَارَاتٌ تُشْبِهُ الْهَوَامِشَ الَّتِي كَتَبَهَا المَجَانِينُ فِي خَيَالِهِمْ.

وَفِي آخِرِ صَفْحَةٍ، وَجَدْتُ سُطُورًا بِلُغَةٍ غَرِيبَةٍ، بِلُغَةٍ عِبْرِيَّةٍ...

كَيْفَ؟ كَيْفَ تَعَلَّمَهَا أَبِي؟ وَكَيْفَ خَتَمَ بِهَا سِفْرَ حَيَاتِهِ؟

تَرْجَمْتُهَا، وَقَرَأْتُ:

«هَذِهِ لِمَنْ طَهُرَ بِمَاءِ الكَآبَةِ وَالعِزَّةِ وَالكَرَامَةِ...

لِمَنْ يَحْمِلُ هَذَا الغَرِيبَ، لِيَفْهَمْهُ كَمَا لَمْ يَفْهَمْهُ القَرِيبُ...»

سَكَنَتِ الغُرْفَةُ بَعْدَ القِرَاءَةِ، وَانْطَفَأَتِ الشَّمْعَةُ الَّتِي كَانَتْ تُنِيرُ الصَّفْحَاتِ.

وَفِي زَاوِيَةٍ بَارِدَةٍ، خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ظِلَّ أَبِي يَبْتَسِمُ مُجَدَّدًا... نَفْسَ الِابْتِسَامَةِ المَخْذُولَةِ.

نَدِمْتُ لِأَنِّي قَرَأْتُ المَجَلَّدَ، ثُمَّ لُذْتُ بِذَاكِرَتِي إِلَى أَوَّلِ يَوْمٍ عَادَ فِيهِ...

كُنْتُ مُسْتَغْرِقَةً فِي الأَكْلِ، وَرَائِحَةُ الحَسَاءِ الدَّافِئِ تَمْلَأُ المَطْبَخَ كَأَنَّهَا تَتَنَفَّسُ فِي جُوفِ الحِيطَانِ.

أَبِي بِوَجْهِهِ المُجَعَّدِ، تَجَاعِيدُهُ تَحُومُ مِثْلَ الوَبَاءِ فَوْقَ عَيْنَيْهِ الضَّيِّقَتَيْنِ، وَشِبْهُ ابْتِسَامَةٍ صَفْرَاءَ كَأَنَّهَا تُخَاتِلُ الحَيَاةَ قَبْلَ أَنْ تُغَادِرَهُ.

حَلْقُهُ المُتَعَلِّقُ بِأُذُنِهِ وَنَفَسُهُ الثَّقِيلُ كَانَا يُرْوِيَانِ قِصَّةَ تَعَبٍ طَوِيلٍ.

ثُمَّ انْطَفَأَ... كَمِصْبَاحٍ أَدْرَكَهُ الفَجْرُ بَعْدَ سَهَرٍ مُضْنٍ.

وَلَكِنْ كَيْفَ وَجَدَ القُوَّةَ لِكِتَابَةِ هَذَا؟

كَيْفَ أَمْسَكَ القَلَمَ وَأَصَابِعُهُ تَرْتَعِشُ كَأَغْصَانٍ مَبْلُولَةٍ فِي شِتَاءِ قَاسٍ؟

أَسَرَتْنِي الذِّكْرَيَاتُ الغَائِمَةُ، وَنَظَرْتُ إِلَى ابْنِي...

مَرَّتْ عِشْرُونَ سَنَةً، وَلَكِنَّ الوَقْتَ يَبْقَى عَاجِزًا عَنْ مُضَاهَاةِ فَقْدٍ وَاحِدٍ.

لَقَدْ كَانَ عُمْرِي سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً فَحَسْبُ، بَرِيئَةً كَزَهْرَةٍ فِي رَبِيعٍ مُبْكِرٍ... لَمْ أَحْسِبْ ذَلِكَ، لَمْ أُدْرِكْ أَنَّ الحَيَاةَ تَسْرِقُنَا بِمِقْدَارِ نَبْضَةٍ.

سَأَذْهَبُ عَمَّا قَرِيبٍ إِلَى مَنْزِلِ أُمِّي "مِيلِيسْيَا"، قَدْ سَافَرَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَى عَمَّتِي...

وَإِلَى الآنَ نَسْمَعُ أَخْبَارًا مُتَشَتِّتَةً عَنْهَا؛ مَرَّةً يقال إِنَّهَا عَاشَتْ فِي مَدِينَةٍ بَارِدَةٍ، وَمَرَّةً أُخْرَى إِنَّهَا تَاهَتْ فِي نُزُلٍ قَدِيمٍ.

الجَمِيعُ تَمَزَّقَ بَعْدَ مَوْتِهِ، حَتَّى هَذَا الطِّفْلُ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ... كَأَنَّ الدَّمَارَ وَرِيثٌ نَبِيلٌ يَسْرِي فِي العُرُوقِ.

لَيْلَتَهَا نَظَرْتُ إِلَى المَجَلَّدِ كَأَنَّنِي أَنْظُرُ إِلَى كِيَانٍ شَيْطَانِيٍّ عَابِسٍ... كَأَنَّهُ رُوحٌ مَشْنُوقَةٌ، لَكِنَّهَا حَاضِرَةٌ، تَتَأَرْجَحُ بَيْنَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ فِي سُكُونٍ مُرْعِبٍ.

نِمْتُ، وَجَذَبَتْنِي الكَوَابِيسُ... كَأَنَّهَا أَيْدٍ خَفِيَّةٌ تَسْحَبُنِي نَحْوَ عَالَمٍ آخَرَ.

رَأَيْتُ أَبِي، وَهُوَ يَدْعَسُ رَأْسَ غُرَابٍ مَيِّتٍ، وَبِجَانِبِهِ فَتَاةٌ تَحْمِلُ عَلَمَ بَرِيطَانْيَا، وَفِي يَدِهَا ذِرَاعٌ بَشَرِيَّةٌ تَنْقُطُ دَمًا.

نَظَرَتِ الفَتَاةُ نَحْوِي بِهُدُوءٍ مُرْعِبٍ، ثُمَّ تَمْتَمَتْ بِصَوْتٍ كَالبَرْدِ يَخْتَرِقُ الجِلْدَ:

"التَّضْحِيَةُ بِالخِرَافِ وَاجِبَةٌ لِإِبْقَاءِ الجَمِيعِ سَالِمِينَ..."

وَأَبِي مَازَالَ يَدْعَسُ الرَّأْسَ بِقُوَّةٍ اخْتَرَقَتْ بَصَرِي، فَلَوَّثَتْهُ، وَتَفَتَّحَتِ الأَلْوَانُ فِي عَيْنَيَّ كَأَنَّهَا نَزِيفٌ بَصَرِيٌّ.

ثُمَّ نَهَضْتُ... نُهُوضًا لَمْ أَأْلَفْهُ، كَأَنَّ الأَرْضَ نَبَذَتْنِي مِنْ جَوْفِهَا.

يَا لَيْتَنِي لَمْ أَنْهَضْ... بُؤْسًا!

هَلْ أَصْبَحْتُ أَشْتِمُ مِثْلَ أَبِي؟

سَأَذْهَبُ إِلَى الغَابَةِ، نَعَمْ... يَجِبُ أَنْ أَعْرِفَ سِرَّهُ... سِرَّ المَجَلَّدِ.

زَارَتْنِي أُمِّي يَوْمَهَا، وَأَخْبَرَتْنِي شَيْئًا بِصَوْتٍ مُخْتَنِقٍ:

"إِبْنَتِي، جَدَّتُكِ كَانَتْ عَلَى عِلَاقَةٍ بِتِلْكَ الغَابَةِ... وَبِالأَحْرَى، كُلُّ أَجْدَادِهَا وَسِلَاسَلَتُهَا مَرُّوا بِتِلْكَ التَّجْرِبَةِ...

مَاتُوا بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَرَكُوا شَيْئًا: مَرَّةً قَلَمًا، أَوْ وَرَقَةً، أَوْ كِتَابًا... لَكِنْ أَبُوكِ كَتَبَ مَجَلَّدَهُ بِيَدِهِ..."

تَنَفَّسَتْ بَعْدَ صَمْتٍ طَوِيلٍ، وَنَظَرَتْنِي بِعَيْنَيْهَا اللَّوَاحَتَيْنِ، وَقَالَتْ بِوَدَاعٍ:

"لَنْ أَمْنَعَكِ مِنَ الذَّهَابِ، لَكِنَّي أَرْجُوكِ أَنْ تَعُودِي..."

كانت كَلِمَاتُهَا تَتَرَدَّدُ فِي الغُرْفَةِ كَصَوْتِ رِيحٍ تَخْتَبِئُ بَيْنَ الأَشْجَارِ، تَشْعِرُكَ بِوَزْنِ الخَطَرِ وَالوِرَاثَةِ المَلْعُونَةِ الَّتِي تَتَدَفَّقُ فِي عُرُوقِ العَائِلَةِ.

عَمِدتُ إلى ارتداء معطفي الثقيل، ويداي ترتجفان قليلًا من البرد والرهبة معًا.

الخارج كان يئنّ تحت وطأة الرياح، والأمطار تتساقط بغزارة، تَلْطَمُ وجهي كأن الغابة نفسها تحذرني.

الأرض مغطاة بأوراق متحللة، تُصدر صريرًا تحت قدميّ، والأشجار تعلو فوقي كحراس صامتين، أعينهم الظليلة تتبعني في كل خطوة.

تقدمتُ نحو قلب الغابة، وكأن كل خطوة تقترب بي من أسرار أبي، من المجلد، ومن الظل الذي يلاحقني منذ قراءته.

همسات خافتة تسللت بين أغصان الأشجار، وكأنها أسماء أجدادي تتلوى في الهواء، تُذكّرني بالتحذيرات، وتشدّني إلى أعماق الظلام.

كل شيء هنا يهمس: الغابة ليست مكانًا عاديًا، بل كيان حيّ، يتنفس، يراقب، ويختبر صبر البشر.

ومع كل خطوة، شعرت أن المجلد في حقيبتي يرفّ، كأنه يودّ أن يُظهر لي سره، أسرار كانت مخفية لأجيال، تنتظر من يجرؤ على مواجهة الظلام.

الفصل الثامن: الساعة الأخيرة للعنة

السَّادِسُ مِنْ أَبْرِيلَ سَنَةَ 2045

عَلَى السَّاعَةِ السَّابِعَةِ وَسَبْعٍ وَخَمْسِينَ دَقِيقَةً، أَمَامَ التِّمْثَالِ الَّذِي اخْتَزَلَ البُؤْسَ كُلَّهُ فِي نَظَرَاتٍ مُوحِشَةٍ.

اِنْسَلَخَ النَّهَارُ عَنِ الأُفُقِ، وَتَرَبَّعَتِ النُّجُومُ فِي مَكَانِهَا المُعْتَادِ، وَزَفِيرُ الغِرْبَانِ يَدُوِي فَوْقِي كَعِقَابٍ إِلَهِيٍّ يَهْمِسُ فِي السَّمَاءِ.

الهَوَاءُ كَانَ يَحْمِلُ رَائِحَةَ تُرَابٍ مَبْلُولٍ وَصَدَى خُطُواتٍ قَدِيمَةٍ، كَأَنَّهُ صَدَى أَبِي.

فِي يَدِي المَجَلَّدُ، وَأَمَامِي التِّمْثَالُ نَفْسُهُ، لَكِنْ لَيْسَتْ نَفْسُ المَلَامِحِ المَذْكُورَةِ فِي المَجَلَّدِ...

إِنَّ التِّمْثَالَ يَبْكِي.

تِلْكَ الدُّمُوعُ نُحِتَتْ بِفَظَاعَةٍ تُدْمِي الصَّدْرَ وَتَجْرَحُهُ، كَأَنَّهَا دُمُوعُ رَجُلٍ قُهِرَ مِنْ عَسْفِ الزَّمَانِ، وَتَصَبَّبَتْ عَلَى وَجْهِهِ كَأَنَّهَا نَزِيفُ رُوحٍ حَبِيسَةٍ فِي حَجَرٍ.

الأَرْضُ تَحْتِي بَدَتْ تَغْلِي، تَتَصَاعَدُ مِنْهَا فُقَاعَاتٌ صَغِيرَةٌ كَأَنَّهَا أَنْفَاسُ الجَحِيمِ، وَالسَّمَاءُ تَلَوَّنَتْ بِلَوْنِ القَضَاءِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيَّ فَوْرًا.

الشَّمْسُ المَحْتَضِرَةُ انْسَحَبَتْ مِنَ الأُفُقِ، وَالحَاجِزُ بَيْنَ الحَيَاةِ وَالْمَوْتِ انْكَسَرَ، وَبَدَا المَكَانُ كَأَنَّهُ يَتَنَفَّسُ حُزْنًا قَدِيمًا.

نَفْسُ النِّسَاءِ حَمْلَقْنَ بِي، وَرَجُلٌ وَاحِدٌ وَقَفَ بَيْنَهُنَّ، وَجْهُهُ مَدْفُونٌ بِالنُّدُوبِ، لَمْ أَعْرِفْهُ، لَكِنَّ الحَلْقَ... نَفْسُ حَلْقِ أَبِي...

اِرْتَجَفَتْ أَطْرَافِي، وَتَشَتَّتَ اِنْتِبَاهِي لِهَذَا المَشْهَدِ، لِأَتَفَاجَأَ بِلَكْمَةٍ وَجَّهَهَا نَحْوِي التِّمْثَالُ.

بُؤْسًا!

كَيْفَ... كَيْفَ تَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ؟!

كَانَ يَبْكِي بُكَاءً يَطْوِي النُّفُوسَ طَيًّا، لَكِنَّ الحِقْدَ كَانَ مَزْرُوعًا كَالأَقْحُوَانِ دَاخِلَ سَوَادِ عَيْنَيْهِ.

وَبَيْنَ كُلِّ نَفَسٍ وَآخَرَ، كَانَتِ الحَجَرَاتُ تُصْدِرُ أَصْوَاتًا خَافِتَةً، كَأَنَّهَا تَتَنَفَّسُ مَعَ الأَلَمِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ المَجَلَّدَ الَّذِي أَحْمِلُهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ كِتَابٍ...

بَلْ عَقَابٌ وَرَاثِيٌّ، سِفْرُ لَعْنَةٍ نَقَلَهَا أَبِي، وَتَشَرَّبَهَا الحَجَرُ، وَالآنَ... يَطْلُبُ دَمِي.

قَبْلَ أَنْ أَنْجَرِفَ مَعَ هَذَا الهَذَيَانِ المَشِينِ، تَرَكْتُ الهَاتِفَ إِثْرَ سُقُوطِي مُتَعَمِّدَةً، وَفَتَحْتُ الكَامِيرَا...

لَكِنَّ الهَاتِفَ تَحَطَّمَ بَعْدَ أَنْ أَضَافَ التِّمْثَالُ رَكْلَةً أُخْرَى مَدَوِّيَةً سَحَقَ بِهَا صَدْرِي.

كَانَ يَضْرِبُنِي كَأَنَّنِي نَسَفْتُ رُوحَهُ وَتَمَادَيْتُ فِي التَّنْكِيلِ بِهِ...

إِلَّا أَنَّ حَقِيبَتِي اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، ثُمَّ سَقَطَتِ الكَامِيرَا الثَّانِيَةُ، كَانَتْ صَغِيرَةً لِدَرَجَةٍ أَنَّهَا رُجِمَتْ بِحَبَّاتِ التُّرَابِ الغَامِقَةِ، ثُمَّ اخْتَفَتْ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ.

فَقَدْتُ وَعْيِي وَأَنَا أَحْتَضِنُ المَجَلَّدَ، كَأَنَّهُ طَوْقُ نَجَاةٍ أَوْ سِكِّينٌ يَخْتَبِرُ نَبْضِي.

وَعِنْدَمَا أَفَقْتُ، وَجَدْتُنِي فِي نَفْسِ المَشْهَدِ الَّذِي كَتَبَهُ أَبِي فِي أُولَى صَفَحَاتِهِ...

الْجَزِيرَةُ المَنْحُوسَةُ.

لَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَسْتَسْلِمَ لِغَرَائِزِي، فَكَّرْتُ لَحْظَةً... ثُمَّ رَفَعْتُ إِحْدَى الجُثَثِ وَأَلْقَيْتُ بِهَا فِي البِرْكَةِ المُوحِلَةِ، وَتَرَكْتُ سُتْرَتِي عَلَيْهَا كَطُعْمٍ لِعَيْنٍ تَتَجَسَّسُ مِنَ البُعْدِ.

رَفَعْتُ شَعْرِي القَصِيرَ إِلَى فَوْقٍ، وَبَدَأْتُ أَرْكُضُ نَحْوَ التَّلِّ الَّذِي انْحَدَرَ مِنْهُ أَبِي، وَفِي يَدِي المَجَلَّدُ.

كَانَتْ خُطَّتِي أَنْ أَتْرُكَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِي حَتَّى بَعْدَ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ هَذَا المَكَانِ، قِطْعَةَ قُمَاشٍ أَوْ أَيَّ شَيْءٍ يُشِيرُ إِلَيَّ.

كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُجَرِّبَ ذَلِكَ الحَدْسَ الخَائِبَ، لِأَبْقَى عَلَى يَقَظَةٍ طُولَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ...

رِحْلَةٍ بَيْنَ الحَيَاةِ وَالْغُبَارِ، بَيْنَ الوُجُودِ وَالْفَنَاءِ.

رَأَيْتُ رَجُلًا مَمْدُودًا عَلَى الرِّمَالِ، يَحْبُو كَالطِّفْلِ الْخَائِفِ تَحْتَ وَطْأَةِ حُلْمٍ مُرِيعٍ، مَلَامِحُهُ مُحْتَبِسَةٌ فِي قَسْوَةِ الذَّعْرِ، وَعَيْنَاهُ تَكَادُ تَنْفَجِرُ مِنَ الرُّعْبِ الْبَطِيءِ.

نَزَلْتُ مِنَ التِّلَّةِ، وَالْهَوَاءُ الْبَارِدُ يَشُدُّ خُصَلَ شَعْرِي الْأَسْوَدَ، يَتَطَايَرُ مَعَ كُلِّ نَفَسٍ مِنَ النَّسِيمِ الْمَحْمُولِ بِرَائِحَةِ الرُّطُوبَةِ وَالتُّرَابِ الْمُتَعَفِّنِ.

رَائِحَتُهُ، تِلْكَ الرَّائِحَةُ الْقَاسِيَةُ، مَزِيجٌ مِنَ اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ وَالدُّخَانِ الْقَدِيمِ، عَلَتْ أَنْفِي وَجَعَلَت جَسَدِي يَقْشَعِرُّ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْخَوْفِ.

الرَّجُلُ كَانَ يُمْسِكُ قَدَمَهُ بِيدٍ مُرْتَعِشَةٍ، كُلُّ عَضَلَةٍ مِنْهُ تَرْتَجِفُ كَأَنَّ الأَلَمَ يَسْكُبُ نَفْسَهُ فِي الْعَظْمِ مُبَاشَرَةً.

تَقَدَّمْتُ بِبُطْءٍ، وَجَلَسْتُ عَلَى الرِّمَالِ بِجَانِبِهِ، وَتَرَكْتُ الْمُجَلَّدَ عَلَى صَخْرَةٍ مُغَطَّاةٍ بِطَبَقَةٍ رَقِيقَةٍ مِنَ الْغُبَارِ وَالرَّمَادِ، صَامِتَةٍ كَأَنَّهَا حَارِسُ سِرٍّ مَيِّتٍ.

بَئْسًا... إِنَّهُ أَبِي... لَكِنْ كَيْفَ...؟

عِنْدَمَا أَعِدْتُ تَمْحِيصَ ذِكْرَيَاتِ الْمُجَلَّدِ، لَمْ يَظْهَرْ سِوَى لَفْظٍ وَاحِدٍ، كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: الْمَرْأَةُ.

تِلْكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ مِنْ مَطْحَنَةِ الْحَرْبِ إِلَى مَائِدَةِ الْخِنَازِيرِ... هَلْ أَنَا تِلْكَ الْمَرْأَةُ؟

كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ بِحَقِّ الْجَحِيمِ...؟

تَسَمَّرْتُ لِبَرْهَةٍ، أَتَجَرَّعُ مَرَارَةَ الصَّدْمَةِ، وَشُعُورٌ غَرِيبٌ يَتَسَرَّبُ فِي عُرُوقِي، بَيْنَ الدَّهْشَةِ وَالذُّنُبِ وَالْخَوْفِ.

لَكِنَّ الْأَمْرَ لَا بُدَّ مِنْهُ: يَجِبُ أَنْ أُنقِذَهُ، وَإِلَّا سَيَمُوتُ...

رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ، رَغْمَ عَدَمِ فَهْمِي كَيْفَ أَتَيْتُ إِلَى هُنَا، قَلْبِي يَدُقُّ، يَصْرُخُ، وَيَدَايَ تَرْتَجِفَانِ، وَلَكِنِّي مُضْطَرَّةٌ لِلْحَرَكَةِ.

حَمَلْتُهُ لَكِنْ لَيْسَ لِلْبَحْرِ،

.«أَعِيدِيهِ!»

مِنْ هُنَاكَ... هَذَا الصَّوْتُ، مَنْ يَكْلِمُنِي؟

.«أَعِيدِيهِ إِلَى الْبَحْرِ!»

بَئْسًا! مَنْ؟

.«نَانَاشِي، أَعِيدِيهِ.»

.«أَنْتِ إِذَنْ مَنْ أَرْغَمَنَا عَلَى الْغَرَقِ فِي هَذَا الْمُسْتَنْقَعِ أَيَّتُهَا الْكَاتِبَةُ... هَلْ أَنْتِ مُشَارِكَةٌ فِي هَذَا؟»

.«اخْرُسِي، وَأَعِيدِيهِ إِنْ كَانَ لَدَيْكِ الْجُرْأَةُ. فَاوْجَهِينِي بِمَا لَدَيْكِ، لا تَنْفُثِي كَلِمَاتٍ لا طَائِلَ مِنْهَا.»

.«لِمَاذَا حَرَمْتِنِي مِنْ لَذَّةِ الْعَائِلَةِ؟»

.«لِأَنَّكِ لا تَسْتَحِقُّينَهَا... فَهِمْتِ؟ إِنْ كَانَ بِمَقْدُورِكِ الْعَيْشُ تَحْتَ سَقْفِ الْأَوْهَامِ لِحَظَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ تَرْسُمِينَ تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةَ، فَإِنِّي سَأَقْتُلُكِ... وَأَنْحُرُ جُبْنَكِ. الْوَاقِعُ هُوَ الْوَاقِعُ، لَيْسَ مَا يَخِيمُ عَلَى السَّقْفِ مِنْ نُجُومٍ.»

.«أَنْتِ أَنَانِيَّةٌ أَيَّتُهَا الْكَاتِبَةُ اللَّعِينَةُ.»

.«وَمَاذَا فِي ذَلِكَ؟»

.«وَأَبِي، مَا ذَنْبُهُ؟»

.«حَتَّى أَنَا لا ذَنْبَ لِي.»

.«كَيْفَ؟»

.«لا أَدْرِي، وَالآنَ أَعِيدِيهِ إِلَى الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَى، وَإِلَّا قَسَّمْتُ فُؤَادَكِ مَرَّةً أُخْرَى.»

لن أفعل

بلى ستفعلين

أنت لئيمة حقا أريد أبي

و أنا لا أريده

كان الهواءُ ثقيلاً، يشبعه روائحُ الرطوبةِ ودنسُ التراب، والصمتُ يتكرّس كغمامٍ على الرمال. قلبي ينبض في حنجرتي كطابورٍ لا يُنهيه أحد؛ وكلّ كلمةٍ تُنطَق تُشقي الحجابَ بين العالمين.

«لن أفعل»

«بلى ستفعلين»

«أنتِ لئيمة حقًّا، أريد أبي»

«وأنا لا أريده»

«لماذا؟»

صدى الصوت كان يتدعدع في الصدر، يرجف كخيطٍ على وجه المنتهى. تحت ظلّ الحجارة، ظهرت الألوان تتفتح كجرحٍ قديم.

«لا تسأليني، لا أريد أسئلة، فقط دَعي جسده اللعين يتشوّه».

الصوت بارد كسكينٍ مسروحٍ؛ وأنفاسي تُقطّعه كحبّات مطرٍ تريد أن تفرّق مسارها.

«وجدان، اسمك يبدأ بالصراخ على الأطلال، والموت تحت النعش الكبير... أنتِ مجرّد كاتبة لقيطة، لا تفهمين معنى أن تكوني إنسانًا!»

الكلمات تهدم مجاسِمَ الوهم بنفس السخرية التي تختبئ في رعَدات الحجر. شعرتُ بوخزةٍ حادّة تحت عظم الصدر، ورأيتُ ظلّي ينثني على وجهه كمن يُسقِط قسطًا من النور.

«هل تعاتبينني الآن بكلماتك الجارحة هذه؟»

«أنا أنتِ... لا تُجدي محاولاتك للانتقام منّا... سأُنقذ أبي منكِ مهما كلف الأمر...»

الصّفاحة بين كلماتنا انقطعت، وتبقّت أذاني تفكّ حبل الصمت لتسمع همساتٍ قديمة. كلّ وقعةٍ تستبطن ذكرى تستحق أن تُدفن.

«هل تجرئين على عصياني، أيتها الخائنة الغبية؟ أرجعيه، وإلّا فجّرتُ أمعاءك الآن!»

هنا تزداد الهمم، وينبسط صدري كخطّ زمنٍ يتشطر. كلمةٌ مثل هذه تجعل الجسد يتلفّظ قبل أن يسمع.

«مستحيل...»

«من أنتَ؟»

«أبي...»

نظرتُ إلى جسده المنهك وامتقع لوني... لقد ظللتُ طريقي وسط هذا اللجوء إلى الحقيقة... بئسًا، كم شخصًا سأصارع... كم؟

نهضت الأمواج في رأسي كأنّها تتحوّل إلى حداد، والزمن يتكامل بصوتٍ واحد: هو صراخ... أنا وحدي.

عَلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ وَسِتِّ وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً، عُدْتُ إِلَى الغَابَةِ صَاغِرَةً، وَجْهِي يَنْطَبِعُ بِامْتِعَاضٍ أَمَامَ التِّمْثَالِ الَّذِي أَمْعَنَ النَّظَرَ فِي هَالَتِي، وَلَمْ يَلْبَثْ بُرْهَةً حَتَّى اِنْبَعَثَتْ مِنْ فَمِهِ رَائِحَةٌ مَشْؤُومَةٌ تُشْبِهُ سُمَّ التِّنِّينِ.

فَتَحَ فَمَهُ لِتَنْبَثِقَ الكَلِمَاتُ مِنْهُ، وَقَالَ:

«حَتَّى وَإِنْ طَعَنْتِ نَفْسَكِ مِئَاتِ المَرَّاتِ، لَنْ تَسْتَطِيعِي أَنْ تُنْقِذِيهِ مِنْهَا.»

«مِنْ مَنْ؟»

«أَنْفَاسُكِ طَوِيلَةٌ، لَكِنْ خَيَالُهَا شَاسِعٌ... ذَلِكَ الصَّوْتُ الَّذِي تَعْرِفِينَهُ بِالكَاتِبَةِ... إِنَّهَا الجَحِيمُ نَفْسُهُ. أَبُوكِ أَخْطَأَ حِينَ تَمَثَّلَ بِقَامَتِهِ الفَارِهَةِ أَمَامِي عَابِسًا، رَاجِيًا مِنَ القَدَرِ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنْ عَذَابِهِ... لَكِنَّهُ مَاتَ تَحْتَ قُضْبَانِ القَدَرِ نَفْسِهِ.

وَمَنْ هُوَ القَدَرُ يَا تُرَى؟ لَيْسَتِ القُوَى الغَيْبِيَّةُ الَّتِي تَشُدُّ خُيُوطَ الكَوْنِ، بَلْ تِلْكَ النَّفْسُ الشَّيْطَانِيَّةُ الَّتِي تَحْكُمُ عَالَمَنَا...

السَّاعَةُ الثَّامِنَةُ وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً... هَذَا الوَقْتُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِيذَانًا لِمَرْحَلَةٍ سَتَخُطُّهَا المَارِدَةُ الكَبِيرَةُ... لَا نَعْرِفُ. رِحْلَةُ أَبِيكِ كَانَتْ مِنْ بَرِيطَانْيَا إِلَى هُنَا، لَا يُوجَدُ مَكَانٌ آخَرُ، وَلَكِنَّ الوَقْتَ يَتَغَيَّرُ... لِذَلِكَ، لِمَاذَا لَا تَذْهَبِينَ إِلَى بَرِيطَانْيَا لِتَكْتَشِفِي غَبَاءَكُمْ، وَلِتُخَلِّصِي نَفْسَكِ مِنْ مَصِيرٍ خِيطَ بِخُيُوطِ المَوْتِ نَفْسِهَا، مِنْ قَبْلِ المَارِدَةِ؟»

لَا أَسْتَطِيعُ فَهْمَ هَذِهِ الحَبْكَةِ المُحْتَدِمَةِ... لِمَاذَا عِنْدَمَا طَعَنْتُ نَفْسِي ظَنَنْتُ أَنَّنِي سَأَعُودُ إِلَى البِدَايَةِ؟ لَكِنْ لِمَاذَا... وَمَاذَا سَأَسْتَفِيدُ؟ أَبِي قَدْ مَاتَ فِعْلًا، أُرِيدُ إِحْيَاءَهُ مِنْ جَدِيدٍ، أُرِيدُ إِسْقَاطَ الرَّهْبَةِ عَنْ أَرْوَاحِنَا، أُرِيدُ التَّحَرُّرَ حَتْمًا مِنْ هَذَا. لَكِنْ لِمَاذَا أَنَا رَاكِعَةٌ، وَلِمَاذَا هَذَا الصِّنْمُ يُحَادِثُنِي، وَلِمَاذَا ذَلِكَ الصَّوْتُ يَدْفَعُنِي لِلجُنُونِ... لَا أَعْرِفُ؟

فَجْأَةً، خَمَرَتْ فِي عَقْلِي أَفْكَارٌ حَامِيَةٌ، كَالنَّارِ تَحْتَ الرِّمَادِ... كَأَنِّي أُفَكِّرُ بِقَتْلِ أَبِي، هَكَذَا سَيَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ، كَمَا عُدْتُ أَنَا الآن. لَكِنَّ المَجَلَّدَ مَنَعَنِي، فَأَبِي عِنْدَمَا مَاتَ فِي الزِّنجَانَةِ، لَمْ يَعُدْ مِنْ جَدِيدٍ.

جسدي راكع على الأرض، ألتقط أنفاسًا متقطعة، كأن كل شهيقٍ يذيب أجزاءً من الواقع ويترك في صدري فراغًا مشحونًا بالخوف. عيني تغليان بالارتباك والجنون، تتحرك النظرات بسرعة بين الماضي والحاضر، بين الرغبة في السيطرة والخوف من الفقد، وكل فكرة عن العودة أو التغيير تتحوّل إلى شعور بالحرقة، وكأن كل خيط من الزمن يجرحني ويذكرني بالدوامة التي لا تنتهي. المجَلَّد ليس مجرد كتاب، بل مرآة للقدر والوعي، يربط بين موت الأب وقراراتي الحالية، ويكشف لي أن الموت والحياة والخيارات متشابكة بطريقة لا يمكن كسرها بالقوة وحدها، والغابة حولي تتنفس معي، أوراق الأشجار تصدر همسات كأنها صدى الذكريات، والهواء مشحون برائحة الرطوبة والتراب القديم، يعكس جوّ الترقب والرعب الداخلي.

إِذًا، الفُرْصَةُ الأَخِيرَةُ هِيَ الذَّهَابُ إِلَى بَرِيطَانْيَا... إِذَنْ، لَكِنْ مَاذَا سَأَعْثُرُ هُنَاكَ؟ أُمِّي... سَأَسْأَلُهَا، أَكِيدًا أَنَّهَا تَعْرِفُ.

الفصل التاسع: خطوة أخرى

الوقت يعصف بأعصابي.

على الساعة الثامنة وستة وخمسين دقيقة، منتصبة بجسدي النحيل أمام التمثال المتبلد... لا يسمع منه همس، ولا تصدر منه رائحة، غير ذلك الثبات الموشم بين جفنيه.

حديثه تبخر من ذاكرتي.

ابتلعت ريقي ونظرت إلى السماء... الغيوم تحدق بحدة، الطيور تتربص بي.

الجميع يراقبني، لكن لا وجود لهم... إنني أتوهم، صحيح... ما الذي أفعله هنا؟

نعم... لأنقذ أبي.

هل علي الذهاب لبريطانيا إذن؟ إنها مسافة مضنية...

هل تقطعت بي السبل في هذا الجحيم؟ بئسا... لماذا أشعر بظلام يتكدس داخل ضلوعي؟

إنني أتألم، لكن لا لجرج...

النافذة من القصر تبعث القشعريرة في صدري.

سأذهب... لا، لن أذهب.

في المجلد يذكر أن منتصف كل ليلة يخرج من بين التراب قضبان تعلوا لتصل إلى العنان...

أبي وضح هذا بعد أن عاد من الموت هناك...

حفر في صفحات هذا الكتاب مشهد الموت وهو يركع أمام التمثال.

دفعته جانبا، وتشبثت بالتمثال، كانني أتضرع للخروج من هذا الهذيان.

توسلت أن يعيدني إلى أبي، لأن هذا الشخص ليس أبي، بل هي الملائكة التي تتشرب من حزن العينين لتصنع من الآلام جواهر.

لقد مكثت هنا أربعين ليلة بين عودة بالزمن وعودة أخرى بنصفي الممزّق.

كأنّ الأرض تبتلع خطواتي، وكأنّ الليل يراقبني ليقيس مقدار الشحوب الذي استقرّ في وجهي.

لم أعد أعرف إن كنت أسير نحو أبي... أم أنني أهرب من شيء أكبر من أبي، ومن التمثال، ومن بريطانيا ذاتها.

في الليلة الأربعين، تغيّر الهواء.

رائحته أصبحت أثقل، كأنّ التراب يخبرني سرًّا لا يجرؤ على قوله.

سمعتُ صوتًا لم يكن صوت الريح... ولم يكن صوتي.

كان شيئًا بين الهمس والأنين، بين الفناء والولادة.

تقدّمتُ نحو النافذة التي تقذف الرعشات في صدري كلّما حدّقت فيها.

لم أعد أميز هل القشعريرة من البرد... أم من الحقيقة التي تنتظرني خلف الزجاج.

وضعتُ يدي على الإطار الحجري، وشعرتُ كأنّني ألمس الزمن نفسه.

الكتاب... المجلد... كل السطور التي كتبها أبي بدمه قبل عودته...

بدأت تُتمتم في رأسي كأنّها صلوات محرّمة.

هل حقًا خرج من الموت؟

أم أن الموت هو الذي خرج منه، ولا يزال يتبعه حتى الآن؟

أغمضتُ عينيّ.

سمعتُ من بعيد القضبان وهي ترتفع من بين التراب... تكسر الصمت بصوت يشبه طرقات على باب عالم آخر.

كان هذا هو الوقت.

اللحظة التي ينتظرها كل من لا يملك خيارًا سوى التقدّم، حتى لو كان الطريق يقود إلى الهاوية.

فتحتُ عينيّ، وسحبتُ أنفاسي بصعوبة.

أنا ذاهبة...

ذهبتُ لأنقذ أبي، لكنني الآن لا أعرف إن كنت سأجد أبي... أم سأجد نفسي التي ضيّعتها بين الأزمنة.

سأذهب إلى بريطانيا... يجب أن أذهب لموطن دفن أبي.

كل خطوة تقربني من القطار تشبه وزن آلاف الأعوام على كتفيّ.

الهواء في الخارج صارث، والضباب يلتف حول جسدي كأنه يحاول أن يمنعني من الرحيل.

كل شيء صامت... إلا صدى قلبي الذي يصرخ: "اذهبي... لا تتراجعي... أبي ينتظرك."

في القطار، كل الوجوه عابرة، بلا ملامح، كأنها أشباح مرت بماضيّ ولم تترك أثرًا.

الساعة تدق ببطء، وكل دقة تذكرني أن الزمن ليس صديقي، بل قيد يلاحقني.

أفكّر في أبي، في لحظة وداعه، في دفنه تحت التراب البارد...

وكأن الموت نفسه يراقبني، يسألني: هل تستحقين أن تعرفي الحقيقة؟

وعندما أخرج من القطار، استقبلني الضباب البريطاني، ثقل الرطوبة على شعري، برودة تسري في عروقي.

المقبرة بعيدة، ولكنني أستطيع أن أشم رائحة التاريخ... رائحة الألم والغياب.

كل قبر يحمل صدى حياة، وكل حجر شاهد على فراغ تركه الموت.

اقتربت من قبر أبي... يدي ترتجف وأنا ألمس الحجر البارد.

اسم أبي محفور هناك، بين الماضي والحاضر، بين الحياة والموت... وكأن الزمن نفسه توقف لحظة كي يراقب حركتي.

وقفت هناك، أمام الصمت الأبدي، وقلت بصوت خافت:

"لقد جئت... أنا هنا... ولن أدعك تذهب بلا وداع."

لكن حين رفعت عيني، لم أرَ قبرًا وحسب... بل ظلًّا طويلًا يتكوّن خلف الحجارة، ظلّ يشبه التمثال الذي رأيته في قلبي...

كأن روحه لم تغادر، كأن الموت لم يفصلنا بعد، وكأن هذا المكان ليس فقط موطن دفنه... بل بوابة لعالم لم أفهمه بعد.

رأيت الندوب تملأ صدره، وجثمانه ما زال محافظًا على بريقه الباهت... ذلك البريق الذي يشبه حضورًا نصف حيّ، كأن جسده لم يغادر بعد، لكن روحه تائهة بين عالمين. تقدّمت أكثر، تحسست قميصه بيدٍ مرتجفة، وفجأة شعرتُ بمجلّدٍ يحرق أصابعي...

بئسًا... لقد اشتعل.

تراجعت خطوة، لكن النار لم تكن نارًا عاديّة؛ كانت تتصاعد من بين الصفحات كأنها ذكريات أبي، كلّ ذكرى تحمل جمرةً لا تُطفأ. انقلبت الأوراق على بعضها، وانفتحت إحدى الصفحات بقوّة، كأن أحدًا ما يدفعني لأراها. اقتربت رغم وهجها، ورغم الألم الذي بدأ يشقّ طريقه إلى جلدي.

هناك... وسط الرماد الآخذ في التشكل، ظهر خطّ أبي، واضحًا كأن الزمن لم يمسّه:

"إذا عدتِ يومًا... فاعلمي أنّ الحقيقة لا تُدفن معي."

اختنق صوتي. حاولت إغلاق المجلّد، لكن النار ازدادت اشتعالًا، وشيئًا فشيئًا بدأت الأسماء، التواريخ، الخرائط، تنكشف من بين اللظى، تلمع للحظة ثم تختفي في السواد.

هل كان هذا ما أخفاه عني؟

هل كانت عودتي إلى موطن دفنه مجرد بداية؟

وقفت أمام جثمانه - أمام أبي الذي لم يقل شيئًا حين كان حيًّا - والآن، بعد موته... يترك لي نارًا تحرق، وتُخبر.

رفعت رأسي نحو السماء البريطانية الرمادية، وقلت بصوتٍ مرتجف:

"حسنًا يا أبي... إن كنت تطلب الحقيقة، فسأبحث عنها، ولو احترقتُ معها."

بجوار التابوت المفتوح ليلة كاملة، لا أعلم كيف التقت عيوني بذاك الوجه الكئيب الذي يبدو وكأن الليل نفسه نقش عليه ملامحه. رفعت رأسي لأجد شابًا فاره الطول، جسده يميل على ضوء الشموع الخافتة، وعيونه تنخر حواسي بنظرات منكسرة، تقتحم روحي وكأنها تعرف كل خفايا قلبي قبل أن أعرفها أنا.

كان يتفوه بكلام لا أعيه، كلمات تائهة بين الهمس والأنين، لكنها كانت تصنع موسيقى غريبة تتناغم مع صرير التابوت الخشبي والمجلد المحترق أمامي. اقترب مني رويدًا، وأنا مستغرقة مع رائحة الورق المحترق، تلك الرائحة التي تشبه ذكرى دفن أبي... وفي يدي تلك الصفحة المبللة بالدموع، نعم، الدموع التي نحتت بين الأحرف وكأنها أصبحت جزءًا من نسيج الورق نفسه، تصرخ وتئن بصمت.

إنتشل الشاب يدي، لكني لم أتحرك. لم تكن هذه اليد مجرد لمسة، بل بوابة لعالم آخر؛ عالم تتقاطع فيه الأرواح، حيث يختلط الماضي بالمستقبل، والخيال بالواقع. شعرت بالبرودة تمر عبر عروقي، لكن معها دفء غريب... دفء يجذبني ويخيفني في الوقت نفسه.

نظر إليّ بثبات، ولفّت نظره حول الغرفة الخافتة، حيث الظلال تتراقص على الحيطان، كأنها أرواح مضت وتائهة. ثم همس بصوتٍ خافت، فيه شيء من الحزن والرهبة معًا:

"ما تبحثين عنه ليس هنا... لكنه بين صفحات الألم، بين النار والظل... هل أنت مستعدة لرؤية ما تركه لك أبي؟"

ارتعشت يدي على الصفحة، وحسست أن كل حرف ينبض بحياة غائبة، كل كلمة تحفر في وجداني ندبة لا تُمحى. الهواء أصبح أثقل، كل نفس يقتحم رئتي وكأن الزمن نفسه قد توقف. شعرت أن الشاب هذا ليس مجرد بشر، بل مرشد في عالم الأرواح والذكريات المشتعلة، كأن صمته أقوى من أي كلمة، وكأن حضوره يربطني بما لم أستطع رؤيته في أبي أو في المجلد المحترق.

حدقت فيه طويلاً، وكأنني أقرأ بين ثنايا وجهه أسرارًا لم يُكتب عنها أي نص، أسرار عن الألم والحب والخيانة والفقدان، وكلها متشابكة مع حكاية أبي، مع تلك النار التي التهمت أصابعي، ومع الظلال التي تعكس حياتي وموتي في الوقت نفسه.

وبينما الليل يتقدم، وبينما الشموع تكاد تنطفئ، شعرت أنني أصبحت جزءًا من الحكاية، أنني لست هنا فقط لأنقذ أبي، بل لأواجه نفسي، وأعرف أن الفقد ليس النهاية، وأن الحقيقة تختبئ دائمًا بين النار والدموع والظل.

رفعت يدي مجددًا على الصفحة المحترقة، وكل حرف فيها يتلألأ بين اللهب والظل، كأن المجلد نفسه يتنفس. الشاب ظل واقفًا بجانبي، صامتًا، لكنه حضوره كان أثقل من أي كلام، كأن الروح تتحدث دون صوت.

فتحت الصفحة ببطء، والدموع التي جفت على يدي تركت آثارها بين الكلمات، تجعلها كأنها حية، تتحرك، تهمس، تحكي عن الألم والظلام الذي لم يرحم أبي، ولم يرحمني أنا أيضًا. شعرت أن كل حرف يجرحني، لكنه أيضًا يفتح لي نافذة لفهم ما لم أستطع استيعابه في حياتي.

الليل أصبح أثقل، وكل شيء حولنا صامت، إلا أصوات داخلي... أصوات قلب أبي، أصوات روحي، أصوات الماضي الحاضر والمستقبل، كلها تتداخل في هدير صامت يشبه البحر والغابة والليل معًا.

الشاب اقترب أكثر، ونظر إليّ مباشرة، وعيناه أصبحتا مرايا، أرى نفسي فيه كما لو أنني كنت أراقب شخصًا آخر منذ زمن بعيد، شخصًا فقد نفسه بين الظل والنار. ثم همس:

"كل ما تركه لك ليس مجرد كلمات... إنه اختبار، رحلة، طريق بين الموت والحياة... هل ستسيرين حتى النهاية؟"

حملت المجلد بين يدي، والحرارة لم تعد تحرقني، بل أصبحت جزءًا مني. شعرت أنني أصبحت قادرة على مواجهة الألم، مواجهة الظلام الذي يملأ قلبي منذ أن فقدت أبي، مواجهة الحقيقة التي أخفاها الزمن.

نظرت مرة أخرى إلى التابوت، وإلى جسد أبي الباهت، ثم إلى الشاب الذي بدا وكأنه ظلّ حيّ، وقلت بصوت خافت، لكن ثابت:

"أنا مستعدة... لأعرف كل شيء... لأواجه كل شيء... لأعيد ما يمكن إنقاذه... حتى لو كان هذا يعني أن أحترق أنا أيضًا."

في تلك اللحظة، شعرت بالزمن نفسه ينكسر، وكأن الليل والنهار يلتقيان، وكأن الماضي والمستقبل أصبحا لحظة واحدة، لحظة مشتعلة بين نار المجلد وصمت التابوت وظلال الشاب الغامض. وكل شيء حولي أصبح بوابة لعالم لم أعرفه من قبل، عالم تتشابك فيه الأرواح، والذكريات، والألم، والمصير.

رأسي سوف ينفجر... كانت هذه المثيرة للمشاكل تصرّ على تتبّع ذلك الكائن الفضائي، وكأنها لا تدرك حجم الورطة. كان المشهد ثقيلاً، فها أنا ناكازي بشحمه ولحمه أنظر إلى ابنتي الجديرة بالثناء، تلك التي أوشكت دموعها أن تُغرق النعش بأكمله وكأننا سنغدو في "تيتانيك" أخرى بفضل انهمارها. وكان ذلك المتبجّح يقف بجانبها، يدسّ في دماغها كل ذلك الهراء. لماذا يقف هكذا؟ مثل ورقة مريضة تهتزّ عند أول نسمة.

لقد تحجّر المكان بأكمله، وساد البؤس السماء فوق رؤوسنا... يا ويلي، لماذا أنا محاصر في هذا الجسد المترهّل؟ جسد لا ينفع بشيء ولا يحمل سوى العجز.

وتبدو تلك — عديمة النفع — غير واعية إطلاقًا، فحتى مع ذلك المجلد بين يديها لم تفهم بعد أنّني سجين في هذا الزمن، معلّق مثل غبار لا يتحرك.

وعندما عدتُ إلى المنزل، تسللت قشعريرة باردة داخل شراييني، أحسست بها تلتهمني من الداخل قبل أن أسقط نحو أحضان زوجتي... ثم ها أنا الآن: ميت، لكنني عالق هنا، كأن الموت رفض استقبالي.

تبا.

أريد أن أحرك هذا الأخرق من ناظري، فهو يقترب منها... أيها المعتوه، لا تقترب!

"إخرس بحق السماء."

كانت فكتوريا تصرخ من خلفي، صوتها كالسوط يضرب ظهري.

"ماذا الآن يا فكتوريا؟"

"ناكازي، ابتعد عن المرآة حالًا، أنت غريب أطوار."

قلت لها وأنا أشعر بالغضب يتصاعد مثل بخار يغلي:

"حسناً، لا تلوميني، فأنت لست محاصرة مثل برميل في هذا المكان المتردّي..."

"إخرس، هذا أفضل مكان يمكن أن يقيم فيه شخص مثلك."

"مثلي أيتها العنصرية؟ ألا تتذكرين ماذا فعلتِ بي حينها؟ تبا لكِ ولمكانك."

"على الأقل لم ألمس رأسك."

"لكنّكِ جعلتِني أضحوكة في هذا المكان! والآن ابنتي تبحث عني... لو أنك فقط لم تصدّقي كلام أبيك حول تلك الحادثة المشؤومة، لكنت الآن بجانب زوجتي. أتظنين حقاً أنني سأقتل بريطانياً نتناً ثم ألوذ بالفرار؟!"

"أبي مقتنع بجرمك... ما عساني أفعل؟ لو بادرتُ بالشفقة لحبسني مع عجوز أخرق."

"تبا لكِ وله."

ثم ساد صمت ثقيل قبل أن تسألني:

"حسناً أخبرني يا ناكازي، هل تعرف هذا المدعو سايكي؟ لأنه يبدو مألوفاً حقاً."

"لا أعرف حقاً، لكن عيونه تشبه عيون أبيك جداً، كأنهما جمرتان ترقصان داخل جمجمته القبيحة."

صرخت فجأة:

"أغلق النافذة، سوف ينكشف أمرك هكذا!"

"لا أريد، سوف أصاب بالزكام بسبب هذا الغبار المتراكم."

"ناكازي، هل أحدثتَ جرحاً آخر في جسدك؟"

"بالطبع لم أفعل."

"انظر إلى المرآة، ذلك الفتى يريد النبش داخل جسدك."

"بئساً... كيف؟!"

قالت:

"سايكي، لكن هل من الصواب فعل هذا؟..."

"استريحي، فأنا متمرس في هذه الأمور. حركة إلى الداخل... وخدش هنا... ثم ها نحن ذا."

صرختُ:

"فكتوريا، سوف أنتقم من هذا الخروف القذر! لذلك حرّكي المرآة قليلاً."

"كما تريد..."

ثم دوّى صوت ناناشي:

"يد سايكي... يد أبي تتحرك..."

"لقد صفعني هذا العجوز لتوّه!"

"من تنعت بالعجوز يا وجه النحس؟ لا تفكر في خداع ابنتي!"

وهكذا انتهى بنا الأمر إلى ارتباك في الزمن، زمنٌ انشطر وأخرج من ظلامه رأسي من المرآة. حاولت فكتوريا أن تجري إلى الوراء، لكنها فشلت. وناناشي فقدت السيطرة على ارتجافة قدميها فركلت سايكي إلى هذا العالم، وهي بدورها أُلقيت إلى هنا. بقينا ننظر إلى بعضنا البعض، مزيج من الذهول والدهشة يعلّق الهواء بيننا، وفكتوريا — تلك الشيطانة — كانت ترسم على وجهها ضحكة أشبه بضحكة خنزير غبي... يا إلهي، كم أريد دعس رقبتها.

ناناشي اختنقت بشهقاتها المتتالية، ثم ارتمت نحوي. أما سايكي، ذلك المنحرف، فقد ظل يرمقني مثل راكون هائج، غاضباً لأنني أفسدت مسرحيته المبتذلة.

وفجأة... انفجرت صرختي، اهتزّ المقعد من تحتي، وتناثرت على وجوه الجميع دهشة صامتة. وتزحزحت ناناشي بخوف مريع بعيداً عني، بينما كنت أصوّب نظراتي نحو سايكي قائلاً:

"اسمعوا جميعاً... ذلك المجلد المحترق بجانب كرسي ناناشي... لماذا ما يزال يشتعل إلى الآن؟ أخبروني!"

استدار سايكي نحو المرآة المتشظية على الأرض، أخذ قطعة من الزجاج وغمرها في رماد الصفحات المحترقة، ثم ألقى بوابل من الكلمات الغبية. ولكن فكتوريا فجأة

انقلبت ضحكتها إلى تجمّد مريب... التفتُّ فإذا بشخص ضخم البنية ممتثل أمامي، هيئة تشبه الساموراي، واقف كأنه قادم من زمن آخر. في البداية ظننت أن سايكي حاك خدعة ما، لكن ما إن لمست ثوبه حتى ارتجفت وتصلّبت تعابيري مثل الجميع، وصرخت:

"ما هذا بحق الجحيم؟!"

لكن فكتوريا صفعَتني صفعة حارقة أعادتني إلى وعيي، ورأيت حينها سيفاً ممدداً أمام وجهي، وسمعت صوت فكتوريا — الواثق رغم خوفه — يرزح تحت ركام الارتباك:

"لا تجعلوه يخرج من هنا... وإلا انتهى أمرنا!"

انتفضت مثل مسعور، وبدون أي تريّث لكَمتُه حتى تورّمت أصابعي. كان فكه قاسياً، صلباً كالحجر، لكني لم أهتم. اندفعت نحوه مجدداً، أريد خنق صمته بضربة إلى منتصف بطنه، لكني تواريت حين رأيت التجهم في عينيه ويده التي أمسكت بعنقي...

وبينما كان الهواء يثقل بين أنفاسنا، تقدّم سايكي بضع خطوات إلى الأمام، خطوات محسوبة كأنّه يمشي فوق خيط مشدود. كان وجهه مشدوداً، عيناه تلمعان بحدة غريبة، وكأن قوة خفية تدفعه نحو ذلك المجهول المتجسد أمامنا.

لكنّ الساموراي، ذلك الكابوس الحي، لم ينتظر حتى يقترب. في لحظة خاطفة، شهر سيفه، لمع بريق النصل كوميض برق قبل العاصفة، وانطلق نحوه بقصد واضح: قتله.

الهواء انشقّ بصوت صفير حادّ، وكأن الزمن نفسه انكمش ليتيح لهذا السيف أن يمرّ.

غير أنّ ناكازي انفجر حركةً—دون أن يفكّر، دون أن يتردد—كأن غرائزاً قديمة استيقظت داخله. اندفع نحو الساموراي بقوة مفاجئة، قبضته ترتجف حول قضيب معدني كان ملقى قرب المرآة المتشظّية. رفعه بكل ما بقي لديه من وحشية، ووقف بين الساموراي وسايكي مثل جدار يائس.

اصطدم القضيب بالنصل في شرارة معدنية دوّت مثل صرخة، وارتجفت الأرض تحت أقدامهم.

وبين فرقعة الحديد، وجّه ناكازي نظرة دامية نحو الساموراي، فيها خوف وفوضى وشراسة رجل لم يعد لديه ما يخسره.

ارتدّت الصدمة في المكان مثل موجة خفية، ومع ذلك لم يتراجع الساموراي. بل أمال رأسه قليلاً، وكأنّ ما فعله ناكازي لم يكن سوى إزعاج طفيف يستحق نظرة ازدراء لا أكثر.

شدّ قبضته على مقبض السيف، وانخفض بجسده خطوة نحو الأرض في وضعية قتال كانت كفيلة بإرسال الرعب إلى أعماق أيّ عقل بشري.

أمّا سايكي، ومع تقدّمه الحذر، بدا كأنّه يواجه شبحاً خرج من لعنات الكتب القديمة. تراجع نصف خطوة لا إراديّاً، وصامت المكان من حوله، كأنّه يُعدّ نفسه لموت محقّق كان يقترب منه بسرعة جنونية.

لكن ناكازي لم يمنح الساموراي فرصة لتثبيت ضربته الثانية.

فجأة انطلق كالسهم المكسور، يتعرّج يميناً ثم يساراً في حركات مرتبكة لكنها مملوءة بإصرار غريزي. رفع القضيب المعدني بكل ما تبقّى فيه من حقد وتمرّد، ثم انقضّ على الساموراي. ارتفع صوت ارتطام الحديد بالصلب كأنّهما جمرتان تتصادمان فوق صخرة.

انزلق نصل الساموراي على طول القضيب، فأطلق شرارات صغيرة تراقصت في الهواء مثل حشرات نور هاربة من جحيمها. دفعه ناكازي للخلف بقوة، فتزعزعت قدما الساموراي للحظة—لحظة قصيرة جداً، لكنها كانت كافية لإحياء بصيص من الأمل في صدورنا.

ورغم ذلك، لم يكن الساموراي سوى عاصفة محشورة داخل جسد، فاستدار بنصف دائرة وبسط ذراعه في حركة رشيقة وقاتلة. كاد النصل يلامس عنق سايكي لولا أن ناكازي، وهو يتصبّب غضباً وخوفاً، دفعه بعيداً بكتفه دفعة أفلت منها أنين ألم وصرخة كتمها في صدره.

تراجع الساموراي خطوة، وصمتَ.

ثم ارتفع صوته ثقيلًا، جهورًا، كأنّه صادر من عمق بئرٍ مدفونة تحت القرون:

"من يعترض سبيلي... يموت."

وتجمد الهواء.

ورغم الأنفاس المرتبكة، واهتزاز الأرض تحت وقع تهديده، رفع ناكازي قضيب الحديد مرة أخرى، وهو يلهث كحيوان ينزف:

"ما داموا خلفي... فلن تمرّ."

ثم فجأة...

توقّف الساموراي عن الحركة.

لم يعد ذلك الوحش الذي يهجم بلا رحمة، بل لاح فيه صمت غريب، صمتٌ يشبه الفجوة التي تتكوّن في قلب العاصفة قبل أن تنفجر من جديد.

رفع عينيه نحوي، وحدّق فيّ حَدْقَةً طويلة... ثقيلة... كأنّ الزمن انكمش حولنا في تلك اللحظة.

ورأيت في أعماق نظرته شيئاً لم أفهمه فوراً—

ظلّ ذكرى قديمة، أو جرحاً دفيناً يعود ليلدغ روحه من جديد.

ثم قال بصوتٍ متكسّر، لا يشبه صوته قبل لحظات:

"أنت... تشبه كثيراً ابنتي... نيناشي."

ارتجف العالم من حولي.

تجمّد الدم في عروقي، بل شعرت كأن قلبي انكمش في صدري حتى كاد ينفجر.

تعثّرت الحروف في رأسي، تهشّمت مثل زجاج المرآة الذي كنا ندوس عليه.

وتداخلت نبضاتي بعنف، كأن صدري محاولة يائسة للهرب من جسدي.

رفعت وجهي نحوه، وعيناي تحاولان أن تمزّقا ملامحه بحثاً عن معنى... أو عن كذبة... أو عن اعتراف مستحيل.

ضغطت أصابعي على القضيب المعدني حتى كادت تتكسر، ثم قلت بصوت ينزف غضباً:

"لماذا... لماذا اسم أمي في فمك أيها المتعجرف؟"

خرج صوتي حادّاً، ممزقاً، وكأنه ليس صوتي بل صدى شيء دفين كان ينام تحت جلدي لسنوات.

شعرت بالعالم يتقلص بيننا—

أنا، وهو، والاسم الذي فجّر كل شيء.

كانت أنفاسي تضطرب، وكنت أحدّق في وجهه كأنّي أريد أن أقتل الإجابة قبل أن يطرحها.

ومع ذلك...

كان في عينيه شيء آخر—

شيء لم أفهمه... ولم أكن متأكداً أني مستعد لفهمه أصلاً.

اللعنة

لم يعد بوسعي التقدم أكثر، لأن أمامي حدقتان تومضان مثل الوشق في الظلام، و إبنتي محاطة بذراعي غريب أطوار مثير للاشمئزاز، بينما تلك البريطانية تتأجج تعابيرها بالسخط و الرهبة.

أريد دفنهم جميعا تحت هذا الزجاج المنثور و الذهاب إلى الموت مجددا، لكن بئسا لهذا الوضع... لقد تفوه بالحقيقة رغم أنني حذرته من تكرارها.

فرطت بالحقيقة لأجل نسيان هذا الحصار، و مع ذلك عاد هذا... وهذا... اللعنة.

فهذا الساموراي هو جدي المنحوس الذي ذاع صيته أركان بريطانيا الشنيعة، ثم تبددت سمعته مع قتل أول مواطن من لندن.

ذاك الذي قوض في ما مضى قلوب الساموراي و دفع في صدورهم الرهبة، لكن لماذا لم تصارحني أمي بحقيقته؟ ولماذا دوما تعابير البؤس تمسح ذكراه... لماذا؟

إنتصبت بهالتي المرتعدة و لوحت بالقضيب بعيدا.

كانت أصوات الجنود تزحف رويدا رويدا إلى الغرفة الحزينة، و أنا أذوي في هذه الدائرة السوداء الضيقة، إذ تتصبب الحيرة فوق رأسي المكبل بالجنون.

صوت الأقدام المزعج... بئسا... يتصاعد صداه في أذني.

لماذا تركت مابيل وحدها في تلك الليلة، و عيونها ترتقب عودي بإلحاح؟ ولماذا بارحت ذلك المنزل البارد؟

كنت رجلا محملا بالذرائع الخاوية، و كنت أيضا قلبا يعوي بصوت منكسر و مجروح، كما كنت أتظلل بجناح أجدادي الذين وهبوا هذه العائلة رباطة الجأش و الحكمة في البقاء على قيد الحياة.

إقتحم الجنود الغرفة، و تمازجت الأصوات الصاخبة بتأهبات الأجساد للقتال، ثم تصادمت شرارات البنادق مع خليط من صوت السيف السليط الذي افترس الجنود، و مع آخر نظرة وجهتها نحو إبنتي كنت قد فقدت صوابي... و شعرت بوخز يضرب جمجتي فيعود لينهش أصابعي.

رفعت نظري و كشرت عن أسناني لتظهر وحشيتي الملتبسة بالريبة؛ كنت مترددا، لكن مع احتداد صوت البنادق و السيوف و الأقدام الهارعة للهروب اعترتني شجاعة مخيفة.

فتقدمت و تشابكت أصابعي النحيلة حول القضيب، و تراقصت أنفاسي الساخنة مع ذلك الالتفاف، و أخذت وجعية جدي دون أن أدرك، ثم انقضضت على أول جندي فلويت عنقه بالقضيب حتى ارتد مغشيا عليه، لكني واصلت التمعين فيه حتى نفذت آخر أنفاسه... كانت دماؤه تفور مثل النافورة في قصر ملكي عتيق.

و لكن خذلتني تلك الإرادة الطاغية، فسقطت على الأرض أتخبط كمن مسه الجنون و العطب، و قد أصاب بعد ذلك أذني صمم اخترق إيقاع صدري المحتدم.

ثم شملتني فجأة يد مرتجفة و مجهولة بسرعة خاطفة فأخرجتني من ذلك المكان النائم في الدماء؛ كان ذلك هو الساموراي يعتصر جوفي بذراعه السميكة، و بجانبه كانت تتهادى أنفاس ناناشي المرتفعة في السماء تنازع بأقدامها للهروب من مصير حتمي، ألا وهو الموت.

و بعد أن ابتعدنا عن الأنظار أطلقت فكتوريا صرخة أمطرت المكان سكونا، و تجهمت على إثرها الوجوه فأصابها الجمود، بينما سرت في أجسادهم الضارية خشوع ملبد بالضغينة... ينظرون إلى بعضهم في تعطش للهجوم.

ترددت في نطق تلك الكلمات التي ابتلعتها كالشوك في حنجرتي، ولكني أخيرًا قلتها بفم مرتعش:

أنزلني أيها الضخم.

قلت هذا بعد أن خيّم على المكان الهدوء، إذ أزاح سايكي تعابير الحيرة من وجهه، ثم مدّ يده إلى ناناشي ليناولها منديلا أبيض مطرّزًا بالهراء.

لا يهم.

لكن ذلك الساموراي لا يريد إفلاتي... اللعنة، اتركني، أنت تخنقني بهذا الوجه المحمّر.

ثم بحق السماء، أين نحن؟

لقد ابتعدنا كثيرًا حتى تحولت نظراتي إلى شتات بين الاتجاهات... فهذا المكان لا يشبه مدينة أو بقايا مدينة، بل هو عبارة عن خراب متزاحم فوق تلال من الخردة.

تقدمت ناناشي، ثم مررت المنديل على جبهتي الملطخة بالدماء، و أنزلت رأسي لتصوّبه نحو مرأى وجهها وقالت:

أبي، هل أنت بخير؟

لست بخير.

قلتها وأنا أعضّ على شفتي بإحكام، فيما أصابعي تحترق وتتآكل تدريجيًا بسبب ضغطي على ذاك القضيب...

بئسًا، أنا لا أفهم ما هذا.

شعرت بيد الساموراي تتفحص كتفي بخشونة أشعرتني بالقرف، فدفعتها بفظاظة، لكنه أعادها وقال:

أنت حادّ الطبع مثلها، لا تلين ولا تحيد عن رأيك، لكن رؤيتك تمسك القضيب ذكرتني بـ-

اخرس أيها الجد.

أدار سايكي وجهه، فارتفعت ضحكة مكتومة من بين ملامحه.

تقدمت قليلًا... ثم أومأت برأسي، ولا أدري لماذا، لكنني تذكرت شيئًا عندما تفحّصتُ بعيني التراب...

انكببت إلى الأرض الملوثة بقامتي المتهالكة، و مسحت بأصابعي الطين، فوجدت عملة معدنية مخضرة اللون...

تذكرت أن هذا الإخضرار لا يتواجد إلا على السفن البحرية لأنها تطفو على الماء... و هذا المكان إذن كان ميناءً في السابق، ولذلك تشبه المدينة الخردة وترابها أسود.

تأففت طويلًا، ثم قلت لهم بعد أن تمرغت أفكاري في بحيرة من القلق:

لقد ضعنا في ميناء الأعداء... وعلى الأغلب أن تلك الغرفة التي كنا فيها كانت للبريطانيين،

كما أن تلك المرآة صُنعت من قبل تجربة متطرفة علميًا، أو ربما أن مجنونًا بالماورائيات أراد اللعب والترفيه عن نفسه...

ولنحسب الأمور منطقيًا... لا أستطيع القول إن وجودي محض خيال بحت، أو أنها قدرة اكتسبتها لإعادة نفسي للحياة مجددًا.

قاطعت ناناشي سرب أفكاري التائهة وقالت، وهي تتلعثم ببراءة بينما سايكي ينظر إلى الجد بغرابة فظيعة:

أبي، المجلد من تأليفك صحيح... أعني أن كل المواضيع التي تطرقت إليها موجودة، لكن بشكل فوضوي وعشوائي داخل المجلد...

مثلاً حادثة موتك ذكرتها، لكنك استعرت لمشهد موتك التمثال، فنزعت عن نفسك كل شيء وأنسبته للتمثال...

وأيضًا عرّجت بشكل ملحوظ على التقاء الساموراي بالبريطانيين، لكن ذلك كان تفسيرًا ذاتيًا من ناحيتي أنا.

لم تفرغ ناناشي من تجسيد تفاصيل ذلك المجلد النتن، حتى تبعثرت كلمات الساموراي كحجارة مصقولة بالريبة في الفضاء الرطب:

سادتي... هل ناناشي هي ابنتك حقًا؟

تبا لهذا المتطفل التافه... ألا يستطيع قول شيء مفيد، أم أن فمه مستعد لجعلنا نجن...

حسنًا، ما إن بادرت بهذا التعبير حتى مرت رصاصة فضية من أمامي، وقد احتكت بسيف ذلك الجد في مواجهة عتيدة مع ثقل الهواء الذي قد قيد حركتنا،

ثم بعد ذلك فرّت مرة أخرى رصاصة من بندقية مجهولة المكان.

ولكني فجأة شعرت بفراغ يغطي وجه سايكي، فاستدرت لأجد دبابة عملاقة مرتفعة فوق الميناء المهجور، وعلى يمينها توجد عينان تتبعان حركات الجد برشاقة وخفة.

لكن ناناشي، قبل أن تحذرنا من هجوم مباغت من الخلف، التصقت بظهر الجد الشامخ وأطلقت كلمات لم أفهمها، ثم تبعها سايكي بصوت آخر متناسق وأقل وطأة.

ماذا بحق الجحيم تفعلان؟

فنادت ناناشي إليّ بصوت هش وقالت:

انظر إلى الراية يا أبي... إن رايتهم تنحدر من أمريكا، ولذلك يجب أن نشتت صفوفهم، فهم يمشطون المكان...

كيف تعلمين كل هذا أيتها الصغيرة؟

إنها ويكيبيديا يا أبي، تشدك للعالم بأسره.

حسنًا، وماذا أفعل الآن؟

صَفِّر وحرّك قدميك ببطء، كي يظنّوك حيوانًا عابرًا... الضباب سيساعدنا على التخفي... هيا.

بئسًا، لماذا أنا بحق السماء؟

حتى هذا الساموراي مشارك في هذا العرض المهين...

رائحة الدبابة تفوح داخل عقلي... حقًا، ألا يمكننا أن نتريّث هنا؟ لقد خرجت من تلك الغرفة... والآن ماذا؟

ألجأ إلى حيل طفولية حتى أسترجع حياتي المهلكة...

لتأتي الدبابة... و ليأتي روادها...

فالإنسان يهزم من قبل إنسان، أما مجرد آلة فلن تقف عثرة في طريق محاولتي للبقاء حيًا...

ولا أهتم بمن سيروي تلهفه بدمائي...

أنا رجل، و لدي ثمرة يجب أن أقطفها قبل أن تفسد.

أبي.

من هذا الذي يجرؤ على مجابهة أفكاري؟

لا تفكر بالتقدم أكثر... أخفض عينيك قليلًا.

نظرت إلى أسفل قدمي، فإذا بالأرض المريضة تخرج من بين طياتها سائلًا أسود لزجًا ينساب من داخل بنطالي ويسحب قدمي داخله،

لكن ناناشي أكملت حديثها ووجهها قد التصق بظهر ذلك العمود البشري بشدة وقالت:

أبي، إنها أرض تجرى عليها التجارب، و أظن أن الأميرة أودعتك هنا حتى تكون جزءًا من هذه التجارب... فقط انظر أمامك.

ناناشي، أنت تهذين بالفعل... فبالكاد تستطيعين استيعاب ما يحدث من حولك.

ولكن سايكي ألقى بذهول مفزع بصره نحو الدبابة، فالتفتُّ حتى أكتشف سبب ذهوله.

بئسًا... إنها تلك الفتاة العصبية، تترنح بأقدامها الناعمة نحوي... إنها فكتوريا.

إذن وجودي منذ البداية كان لمصالحها الشخصية...

و... الحديث لن ينفع مع هذه الخائنة...

كلكم خَوَنة.

اعترتني موجة ساخنة في صدري، وقد انتشرت بعدها في جميع أطرافي...

قبضت على أصابعي المجعدة، ثم نظرت إلى السيف الممدود في يد الساموراي...

واختفت كلماتي فجأة.

لم أعرف كيف وجدتُ نفسي أمام الساموراي مباشرة. كانت يداه ترتجفان بشكل خافت، كأنهما تحملان أكثر من مجرد سيف. وعندما امتدّت أصابعي نحوه، لم يقاوم. فقط نظر إليّ نظرة قصيرة، نظرة تشبه إقرارًا صامتًا بأن ما سيحدث بعد هذه

اللحظة لم يعد من شأنه. كنت أسمع نبضي أعلى من صوت الريح، وأشعر بأن الجلد فوق صدري أضيق من أن يتّسع لروحي.

أخذتُ السيف.

كان أثقل ممّا توقّعت، وكأن كل من حمله قبلي ترك جزءًا من روحه عالقًا فيه.

لم أفكر.

أو ربّما كنت أفكر أكثر من اللازم.

تقدّمتُ نحو فيكتوريا، تلك المرأة التي لم تفهم يومًا أنّ وجودي وحده كان يكفي لفتح أبواب لم تكن مستعدة لرؤيتها. عيناها لم تهتزّا، وكأنها كانت تنتظرني منذ البداية. رأيتُ انعكاسي فيهما: شخصًا لم أعد أعرفه، شخصًا وُلد من بين شظايا كل شيء حاولت دفنه داخلي.

رفعتُ السيف.

لم ترتجف يدي... أو ربما لم أشعر بالارتجاف.

لكن في اللحظة التي خطوت فيها خطوة أخيرة نحوها، اخترق المكان صوتٌ معدني جافّ-طلقة واحدة-كأنها لم تستهدف جسدي بقدر ما استهدفت الزمن نفسه. لم

أشعر بالألم فورًا؛ شعرتُ فقط بذلك الارتجاج العنيف، ذلك التحذير العميق الذي صرخ داخلي: توقّف... الآن.

تجمّد كل شيء حولي، كأن العالم انكمش في نقطة واحدة.

سقط الهواء من صدري، وارتخى السيف بين أصابعي للحظة قصيرة كأنّه يريد أن يترحّم عليّ قبل أن يسقط.

لم أسقط.

ليس مباشرة.

وقفتُ هناك، محاصرًا بين خطوة أردتُ أن أكملها وجسد يرفض المضي أكثر. كانت فيكتوريا تنظر إليّ، لا بنصر، بل بدهشة حقيقية... لوهلة صغيرة شعرت وكأننا اتفقنا أخيرًا على شيء، وإن كان ذلك الشيء مجرد الصمت.

ومع كل ذلك، لم يكن الإنذار الذي دوّى داخلي فقط تحذيرًا من الرصاصة...

كان تحذيرًا من نفسي.

أدركتُ، في تلك اللحظة الضيقة بين الحياة والانطفاء، أنّ النهاية لم تكن أن أموت أو أقتلها... بل أن أتوقف قبل أن تبتلعني تلك الظلمة التي كنت أحملها في يدي على شكل سيف.

خفضتُ رأسي.

تنفست.

وشعرتُ-لأول مرة منذ زمن طويل-بأنّ الخطوة التالية ليست ملكي وحدي.

وهكذا... لم تُحسَم المواجهة، لكنها وضعتنا جميعًا على الحافة نفسها، حيث لا أحد يخرج كما دخل.

لكن ما الإصابة؟

كان يفترض أن أسقط... أن ينطفئ كل شيء داخلي لحظة سماعي ذلك الطلق، لكني لم أكتفِ بالجمود. شيء ما رفض أن يسمح لجسدي بالتراجع. الضباب ازداد كثافة، كأنه يلتفّ حول صدري مثل حبلٍ مشدود، يضغط على أنفاسي، ويُضخم نبض قلبي إلى حدّ يصمّ أذني.

لم أشعر بالألم مباشرة... فقط وخزة باردة في كتفي، كأن جسدي يحاول تجاهل الواقع.

ومع ذلك، كنت أرى بوضوح غريب-وضوح يشبه الهذيان.

كانت فيكتوريا تتقدم نحوي بخطوات متأنية، ثابتة، كأنها تعزف على الأرض لحن انتصارها... لحنًا قبيحًا.

لكن خلفها، من خلف كتفها، رأيت ظلًا يتحرّك.

لم تكن حركة كبيرة... مجرد انزلاق قدم فوق المعدن الصدئ.

لكنها كانت كافية.

انقبضت يدي على مقبض السيف بقسوة لدرجة شعرت بأن عظامي ستتكسر.

وفجأة... دون تفكير، دون وعي، دون أي حساب...

اندفعت.

صوبت السيف نحو عنق الرجل، وفي لحظة واحدة، لحظة لم تستغرق أكثر من رمشة، قطع الحدّ الحاد الهواء ثم اللحم.

انفصل الرأس بخفة مخيفة، كأنه كان ينتظر ذلك منذ سنوات.

تناثرت الدماء الساخنة على وجهي، تساقطت على جفوني، تسللت إلى شفتي، سالت على رقبتي...

وأحسست، للمرة الأولى، أن هناك شيئًا داخليًا يستيقظ-شيئًا لم أعرفه سابقًا.

لم ألتقط أنفاسي بعد حتى رأيت الثاني يندفع نحوي.

كان أكبر من الأول، أقوى، يحمل بندقية، لكن خطواته كانت مرتبكة-كأنه لم يستوعب بعد كيف سقط زميله بهذه السرعة.

جاءني من اليمين.

التففت حول بدني وأفلتّ من رصاصته التي شقت الهواء قرب خدي.

ثم... ضربت.

سيفي مزّق الضباب قبل أن يمزّق صدره.

صرخته كانت قصيرة، مخنوقة، كأن الهواء سرقه قبل الحياة.

ثم جاء الثالث...

وكنت قد فقدت كل وزن لزمني.

صرت أتحرك كما لو أن السيف هو الذي يختار، وأنا مجرد تابع، مجرد تمثال يتحرك بقوة سواه.

ارتفع جسدي، انحنيت، قطعت، سحبت، اندفعت، تراجعت...

كل شيء حدث في ومضات، بين ضربة وأخرى، بين شهقة وأخرى.

حتى رائحة الدم... صارت جزءًا من رئتي، جزءًا من نبضي.

كانوا أربعة... خمسة... لا أعلم.

كل ما كنت أعلمه أنني لم أعد أتوقف.

وأن كل من يقترب... يصبح جزءًا من تلك البركة الداكنة التي تتسع حول قدميّ.

وبين أنين الريح وارتطام السيوف وطلقات فاشلة حاولوا بها إيقافي، سمعت داخل رأسي صوتًا...

غامضًا...

ساخرًا...

عارفًا:

"أظنّها كانت تستخفّ بك كل هذا الوقت."

ورفعت رأسي نحو فيكتوريا.

كانت تحدّق بي...

لكن ليس كمن ينظر إلى عدو.

بل كمن ينظر إلى شيء لم يعد بشريًا تمامًا.

رفعت رأسي نحو فيكتوريا...

كانت تحدّق بي بعيون متسعة، لا خوف فيها... بل دهشة باردة تشبه دهشة عالم يرى تجربته تتصرف من تلقاء نفسها.

الضباب كان يلتف حولها كستار مسرحي يعلن بداية المشهد الأخير.

خطت خطوة نحوي.

لم تحمل سلاحًا.

لم ترفع يدها.

كانت تنظر إليّ فقط... كأنها تقيس المسافة بيني وبين هاويتي.

- "أرى أنك استيقظت أخيرًا، ناكازي."

قالتها بنبرة لا تشبه البشر... نبرة مختبر، نبرة قرار مسبق.

كنت ألهث. صدري يحترق، الجرح في كتفي بدأ يلسعني كالفحم، والدم الذي سال مني اختلط بدماء من سقطوا حولي، فصار كل شيء بلون واحد... لون الحيوان المذعور الذي يرفض الموت.

قبضت على السيف بقوة أكبر.

لم أعد أشعر بيدي.

ولا بأصابعي.

ولا بجسدي.

كنت أشعر بشيء واحد:

الرفض. كامل الرفض.

قالت فيكتوريا وهي تتقدم بخطوة أخرى، كأنها ليست واقفة بين الجثث، ولا بين فوضى الحرب:

- "كنت أختبر حدودك. وللأسف... تجاوزتها."

ارتفعت في داخلي رغبة غريبة...

رغبة في أن أريها ما الذي تجاوزته بالضبط.

اندفعت نحوها.

السيف اخترق الهواء، تجاهل الألم، تجاهل الدم، تجاهل الزمن...

لكن قبل أن أصل إليها، سمعت صوتًا جديدًا-صوتًا لم يكن للرصاص، ولا لخطوات الجنود، ولا لصوتي.

كان صوت السيف.

سيف الساموراي.

انقلب الحدّ الكبير أمام وجهي فجأة، يعترض طريقي.

كاد يقطع وجهي لو أنني لم أتراجع بحدة.

صرخت:

- "أيها العجوز... تنحّى!"

لكن خطوات الساموراي لم تتحرك.

كان واقفًا بيني وبينها... ظهره نحوي، وكتفاه يرتجفان بحذر يشبه الخوف.

قال بصوت منخفض، مجروح من الداخل:

- "ناكازي... لا تتقدم خطوة أخرى."

لم أفهم.

لم أستوعب.

كل ما رأيته هو جسد يقف بيني وبين خصمي.

صرخت بصوت لا يشبه صوتي:

- "أبتعد!"

لكن الساموراي احتفظ بمكانه، ثم أدار رأسه قليلًا وقال:

- "أعرف هذا المنظر... رأيته من قبل. هذه ليست شجاعة. هذا... الوحش الذي داخلك، هو ما جعلني أفقد قبيلتي."

تجمدت.

لأول مرة منذ بدأت أقطع الرقاب، شعرت بأن الأرض تعود لسحب أقدامي.

فيكتوريا ابتسمت... ابتسامة صغيرة، دقيقة، مطمئنة، كأن الساموراي كان جزءًا من خطتها أيضًا.

قالت له:

- "أحسنت. هو الآن في أقصى نقطة يمكننا الوصول إليها."

شعرت بأن رأسي سينفجر.

رفعت السيف مرة أخرى، وهممت بأن أدفع الساموراي بعيدًا، لكن...

لكن كتفي خانني.

أحسست بحرارة تنفجر في الجرح، حرارة جعلت السيف يسقط من يدي، ويستقر على الأرض بصوت مكتوم.

ركعتُ دون إرادتي.

جسدي كله ارتجف.

العالم ضاق.

الضباب تحوّل إلى لون واحد.

وصوت فيكتوريا أصبح أبعد... وأبعد... وأبعد.

قالت وهي تقترب مني:

- "كنت مجرد خطوة واحدة عن التحول الكامل... لكن جسدك أضعف من أن يحتمل."

ثم سمعت آخر ما قالته، قبل أن يبتلعني الظلام:

- "لا تقلق يا ناكازي... سنعيد المحاولة."

لم أعد أرى شيئًا...

لا فيكتوريا... ولا الدبابة... ولا أجساد الرجال الذين سقطوا تحت يدي.

كل شيء كان ينساب بعيدًا، كأن العالم يسحب نفسه من حولي حتى بقيت وحدي، أتنفس بثقل، والدم يغرق ساعدي.

لكن بعد دقائق-or ساعات لا أدري-سمعت وقع خطوات هادئة، ثابتة... خطوات لا تشبه الجنود ولا العلماء ولا أولئك الغرباء.

فتحت عيني بتعب... فوجدته.

الساموراي.

كان واقفًا أمامي، سيفه مغروس في الأرض، وملامحه مغطاة بطبقة غريبة من الغبار والندم.

لم يقل شيئًا في البداية... فقط جلس إلى جانبي ببطء، ثم سحب السيف من التراب كما لو أنّه يستعيد نفسًا ثقيلًا.

قال بصوت مبحوح:

- "لقد رحلت فكتوريا... ومعها الأمريكيون. هذا أفضل لنا الآن."

تنفست بعمق، حاولت النهوض ولم أستطع.

خفض رأسه نحوي، وصوته صار أعمق... صادقًا بطريقة جارحة:

- "ناكازي... يجب أن تعرف ما حدث... وما سيحدث."

نظرت إليه بصعوبة، لكن عيونه لم تهتز.

تابع:

- "بريطانيا لم تتوقف يومًا عن البحث... عن جيش لا يُقهَر. جيش لا يشعر، لا يرحم، ولا يموت. منذ زمن قديم... منذ أن عرفتك أمك."

انقبض صدري.

شعرت بأن الأرض ترتج من تحت جلدي.

فواصل الساموراي كلامه، وكأنه يفتح بابًا ظلّ مغلقًا عشرين سنة:

- "وأنت... كنت وسيلتهم. أنت لم تكن صدفة يا ناكازي. لم تُعد للحياة بلا سبب. بريطانيا لا تعبث... بل تصنع. وإن كانت الوسيلة قذرة، فلن تتردد لحظة في استخدامها."

أبعدت نظري عنه بقوة... لكن صوته لحقني:

- "لقد قتلتُ بريطانيا يومًا... قتلتُ رجالها، وكسرتُ كبرياءها. لكن... بعد ذلك جعلتني أتذوق طعم الذل ألف يوم."

شدّ قبضته على مقبض السيف.

سمعت عظامه تتصلّب.

- "والآن... يريدون تكرار التجربة. لكن عبرك هذه المرة."

ابتلعت ريقي بصعوبة.

شعرت بأن الهواء ثقيل، خانق، مسموم بكل ما قاله.

اقترب الساموراي مني، وصوته أصبح أخفض... لكنه أكثر صدقًا من أي شيء سمعته في حياتي:

- "لا أستطيع التضحية بك يا ناكازي... كما ضحّيت أنا بنفسي من أجل أمك."

تجمدت.

كأن قلبي توقف لحظة.

رفع رأسه للسماء وقال:

- "كانت أمك دوماً تعارضني... كانت ترفض أن تكون حياتك امتدادًا لحربي. لكن..."

سكت قليلًا، ثم أضاف كمن يعترف بخطيئة:

- "ابنتي الأخرى... كانت تساندني. ولم تعلم أمك شيئًا. ولهذا لم أخبرك."

أحسست أن الأرض تفتح صدعًا تحت صدري.

تابع بنبرة تحمل عشرات السنين من الندم:

- "قطعتُ أميالًا وأميالًا حتى وصلت إلى هذا المكان... إلى تلك الغرفة. لم أعرف كيف جئت. ولا متى. لكنني اكتشفت الحقيقة: أنك أنت... معنى الكبرياء الدامي الذي تركته وراءنا."

اقترب مني أكثر، نظر إلى يدي المرتجفة، وقال:

- "لكن هذا الكبرياء سيقتلك... إن لم تمنعه من الانهيار أمامهم."

صمت.

لم أجد كلامًا.

لم أجد أنفاسًا.

كنت مجرد جسد ينزف، وروح تنكسر، وعقل يحاول فهم لماذا أعيدت حياتي فقط لأقف وسط حرب ليست لي.

ثم وضع الساموراي يده على كتفي برفق لم أعرفه منه من قبل:

- "إن أردت أن تبقى... يجب أن تواجههم. لا كوحشٍ صنعوه... بل كالرجل الذي لم يستطيعوا كسره."

وأخيرًا...

رفعت بصري إليه.

ورأيت شيئًا لم أرَه في عينيه من قبل:

الخوف.

الخوف عليّ... لا مني

ساد صمت ثقيل بعد كلمات الساموراي، لحظة بدت وكأن الهواء نفسه توقف عن التنفس. كانت النار المشتعلة قربهم تلمع انعكاسها على ندوبه العميقة، فتزيد وجهه قسوةً وحنينًا في آن واحد.

اقترب منه ناكازي خطوة واحدة، يده ترتجف وقد أدرك أنه يقف أمام الحقيقة التي لم تخطر بباله يومًا. رفع الساموراي رأسه ببطء، وابتسامة متعبة تشق شفتيه، ابتسامة رجل عاش أكثر مما ينبغي وفقد أكثر مما يُحتمل.

قال بصوت مبحوح، وكأنه يسحب من صدره تاريخًا مدفونًا منذ عقود:

"أنا جدّك... أصل كل هذا الجنون. لذلك لا تلُم نفسك، لأنك ورثت مني هذا الإصرار... وهذا العناد الثابت. حتى نيناشي كانت تمقتني لأنها رأت فيك ظلي، ورأت فيّ جدارًا سيحجب طفولتك. أردتُ تلقينك هذا الفن في صغرك... أردت أن أحميك بطريقتي القاسية، لكنها لم تسمح. والآن... لم يتبقَّ غيري وغيرك."

انخفض صوته لكنه ازداد حرارة، كأنه يعترف للمرة الأولى دون درع ودون كبرياء:

"وأظن أن ناناشي... تحبك أكثر مما تتوقع. من يظن أنها ستبذل كل هذه القوة لأجل الوصول إليك؟ وحتى هذا الفتى-" أشار نحو سايكي دون أن ينظر إليه، "-لا يبدو غريبًا عني. حقًا... أظن أنك من نسل من أوقفوا الساموراي."

انكمشت نظرة سايكي، وظهر في عينيه مزيج غامض من الانزعاج والارتباك. تكلم بحذر وخيبة لم ينجح في إخفائها:

"لا أعرف عن ماذا تتحدث."

ضحك الساموراي ضحكة قصيرة مهشّمة، ثم قال:

"صوتك وطريقة تفكيرك... أنت ثمرة ذلك السياسي الذي ادّعى السلام فبتر غصن الحمام... تبا."

ثم أضاف وهو يمسح غبار السنين عن صوته:

"قلتُ لك إنك من نسل من أوقفوا الساموراي... كان اسمه هاروكي تاكهارا."

رفع رأسه قليلاً، كأنه يستعيد مشهداً مدفوناً تحت تراب مدينة أُحرقت:

"والبريطاني الذي قُتل في لندن... لم يكن ضحية حرب ولا مخططاً سرياً."

سكت لحظة، ثم أطلق الحقيقة كما تُسحب شفرة من غمدها:

"قتلته أنا."

تجمدت الأرض.

سايكي:

"لماذا؟"

الساموراي نظر بعيداً، وكأنه يرى الدم يعود ينزف فوق الرصيف الحجري الذي دفن فيه اسمه:

"لأنه لم يحترم الساموراي."

تقلص فكه، وصار صوته أخفض:

"داس على كرامتي علناً... سخر من شرف السيف، ونعت فنّنا بالوحشية، وهدد بأن يدوس تاريخنا تحت حذائه كما تُداس الحشرات."

قبض على مقبض سيفه، كأنه لا يزال يشعر بحرارة تلك اللحظة:

"لم أكن أقتله دفاعاً عن غضب... بل دفاعاً عن شيء أكبر مني ومنه. عن الحرمة. عن الشرف."

ثم التفت إلى ناكازي، وكأن اعترافه هذا مفتاح لباقي الحقيقة:

"بريطانيا أرادت تكوين جيش لا يقهر... وأنت كنت الوسيلة. قتلتُ بريطانياً يوماً، لكن بريطانيا جعلتني أتذوّق الذل ألف يوم."

اقترب خطوة، صوته يتناثر مثل رماد:

"وأمك كانت دوماً تعارضني... أما ابنتي الأخرى فكانت تساندني. لذلك لم تعلم عني شيئاً، ولم أعلّمك أنا."

ثم قالها، صريحة أخيراً:

"أنا جدّك، وأصل كل هذا الجنون... فلا تلم نفسك. الكبرياء الدامي الذي يسري فيك منك، ورثته عني."

نظر إلى سايكي:

"حتى أنت... لست غريباً عن هذا التاريخ."

تنفس ببطء، ثم رفع السيف بينه وبين الثلاثة:

"والآن... لا شيء تبقى لأخفيه. اسمي الحقيقي..."

شينوهارا كونيشيج...

هذا الهدوء مريب...

هل يُفترض بهذا المكان أن يبدو صامتًا إلى هذا الحد؟ صمتًا موحشًا كأن الحياة قد هجرت أركانه منذ زمن بعيد؟

ناكازي، لا تصمت، فقط تأمّل الفراغ جيدًا، ستجد شيئًا بالتأكيد. لا بد أن ثمة شيئًا مختبئًا خلف كل هذه الأشياء المرتبكة، خلف هذا المشهد الذي يبدو وكأن أحدهم تعمّد أن يبعثره ثم تركه على حاله. أولئك الأوغاد! لقد عبثوا بالتاريخ حتى بدا كأنهم حوّلوه إلى امرأة زانية.

بحق الجحيم، أين أنا؟

هذه الرائحة...
وهذا الملمس...

هل عدت إلى بريطانيا من جديد؟

بئسًا، بئسًا! هل تحاولون العبث بهذا الرأس البائس؟ لقد سئمت ألاعيبكم القذرة، وسئمت أن أجد نفسي في كل مرة داخل كابوس جديد لا أعرف كيف انتهى بي المطاف إليه.

لقد عدت إلى بريطانيا من جديد، لكن... تلك الشوارع غير مألوفة، والطرقات مكتظة بالمتسولين والمشرّدين. وجوه شاحبة، وثياب بالية، وأجساد تتوارى في زوايا الأبنية كأنها جزء من قذارتها. يا له من مشهد مقزز!

وهذه الأحذية ذات الكعوب العالية... رؤيتها وحدها تثير الغثيان. هل هم بشر من الأساس؟ ثم ما شأن هذه الفساتين المنمّقة بألوان تكاد تسدّ الأنفاس؟ أهي تواكب موضة ما؟ أيّ موضة هذه التي يتباهون بها وسط هذا العفن؟

الجميع يسبحون في فضلاتهم المتعفنة، وهؤلاء المتغطرسون يدوسون الأرض بأحذيتهم ذات الجودة العالية، كأنهم لا ينتمون إلى المكان نفسه، أو كأن رائحة البؤس لا تبلغ أنوفهم ما داموا يملكون ما يكفي من المال لستر أقدامهم.

تبا! لقد عدت إلى زمن حرق الساحرات، وأطفال العذارى، وعجائز السوق!

تبا، تبا، تبا! يا ناكازي، ما هذا الحظ العاثر؟ لو كنت أعلم أنني سأُلقى في هذا الزمن من جديد، لسمحت لذلك المتملق بأن ينحر رقبتي فوق تلك الأرض السوداء. على الأقل كنت سأحظى بنهاية تليق بي، بدلًا من هذه المهزلة التاريخية.

حقًا، يا لها من كرامة عظيمة! أن يُترك المرء في زمن لا يحسده عليه أحد في التاريخ، وأن يُجبر على استنشاق عفنه والتعايش مع قذارته، بينما لا يملك حتى رفاهية الاعتراض!

وتلك فكتوريا... لقد غدرت بي وأباحت دمي أمام الجميع. ألهذه الدرجة هان عليها أمري؟ هل كنت مجرد أداة أخرى في يدها، أم أنني بالغت في تقدير مكانتي عند تلك المتصنعة؟

هل أنا كلب يسيل لعابه بحثًا عن ولاء شخص متصنع مثلها؟

إنها قذرة حقًا، والأدهى من ذلك أنها تآمرت مع أصحاب النفوس الزكية، وأسياد الطبقة الحيوانية، أمريكا الرتيبة!

لكن لماذا؟ لماذا الإطاحة بي أنا تحديدًا؟ ألهذا الحد كنت خطرًا عليهم؟ أم لأنني مجرد فأر لعين، لا بد من تجربة كل ما فيه من طعم مريع قبل التخلص منه؟

يا لها من سخافة!

وها أنا، في هذه اللحظة، أتفوّه بكل هذا الكلام بينما تملأ فمي كومة من روث أحصنة أرستقراطيّ ما!

تبًّا... تبًّا لهذا الزمن!

إنني أموت وسط هذا العفن... بئسًا!

أعني، إن الأمر ما زال على عهده؛ من سيئ إلى أسوأ.

يجب أن أنهض من هنا. لا أريد لأمري أن يفتضح أمام هؤلاء الرعاع. ما زلت أحتاج إلى رأسي في الوقت الراهن، لكنني لا أرى أن فكرة اقتحام منازلهم وحشرهم داخل نصلي، ثم التجول بهم عراة في هذه المدينة النائمة، فكرة سيئة على الإطلاق.

لا أحد سيعترض، على أي حال. الجميع يفعل ذلك، أليس كذلك؟

مسحت ما تبقى من فضلات الحصان العالقة بجبيني، ونفضت عن ملابسي بعض الأوساخ التي التصقت بها، ثم رفعت بنطالي المرقّع بخيوط بنفسجية قبيحة. كان القماش مهترئًا عند الركبتين، ولم تكن تلك الرقع اللعينة تضيف إليه سوى مزيد من البشاعة. سرت إلى الأمام دون وجهة محددة، لا أعرف حقًا إلى أين سيأخذني حدسي المتهور، ولم أفكر كثيرًا في الأمر. لم يكن لديّ ما يكفي من الصبر لأقف في منتصف الطريق وأناقش نفسي بشأن الاتجاه الذي ينبغي أن أسلكه.

تجاوزت الإسطبل، حيث كانت رائحة التبن الرطب وروث الحيوانات عالقة بالهواء، ثم وقعت عيناي على فرس بدا وكأنه فقد نصف ما تبقى له من حياة. كان مترهّل الأطراف، نحيلًا إلى درجة تجعلك تتعجب من كيفية بقائه على قيد الحياة كل هذه المدة. كانت أضلاعه بارزة تحت جلده، ورقبته منحنية إلى الأسفل، فيما بدا شعره متشابكًا ومتسخًا، كأن أحدًا لم يكلف نفسه عناء الاعتناء به منذ أسابيع.

وجدته ممدّدًا بين حصير من العشب الأصفر، بالكاد يرفع رأسه حين اقتربت منه. أما صوت احتكاك أسنانه، فكان يمزّق الآذان، وكأن ذلك المسكين يحاول طحن آخر ما تبقى له من صبر.

لم أجد ما يناسب هذا الوضع بالتأكيد.

الأشياء الجيدة، للأسف، لا تصادفني أبدًا.

ومع ذلك، امتطيته وانطلقت. لم يكن السير عليه مريحًا بأي شكل، فقد كانت خطواته متثاقلة وغير منتظمة، وكلما حاول الإسراع أطلق صوتًا مزعجًا من حنجرته، ثم عاد إلى مشيته البطيئة وكأن الطريق بأكمله لا يعنيه. لكنني لم أكن في وضع يسمح لي باختيار وسيلة نقل أفضل.

عبر بي مدينتين، ثم خارت قواه فجأة، وتوقّف عن السير وكأن ساقيه قررتا العصيان دفعة واحدة. كان الأمر أشبه بحصان ظلّ يتظاهر بالقوة طوال الطريق، محافظًا على رباطة جأشه أمامي، ثم قرر أن يفضح ضعفه في أسوأ لحظة ممكنة.

حصان مثابر، لا شك في ذلك.

تركته عند ضفة النهر، حيث كانت المياه تتحرك ببطء بين الأعشاب المتناثرة والحجارة الصغيرة. لم أجد سببًا يدفعني إلى إضاعة المزيد من الوقت معه، فتركت أمره للسماء، أو لأيّ شيء آخر قد يتكفل به.

بعد ذلك، تسلّقت شجرة فارعة الطول، عملاقة إلى درجة أنني كدت أسقط منها مرتين قبل أن أبلغ أحد أغصانها السميكة. كانت بعض الأغصان أكثر هشاشة مما توقعت، واضطررت إلى تثبيت قدمي بحذر في كل مرة حاولت فيها الانتقال إلى موضع أعلى. لم تكن تجربة ممتعة، خصوصًا أنني لم أكن أرغب في قضاء بقية يومي ملقى على الأرض بسبب شجرة مغرورة.

وعندما استقررت أخيرًا، نظرت إلى الأفق الرحب.

من ذلك الارتفاع، بدت الأراضي ممتدة على نحو واسع، تتخللها مساحات من العشب الباهت وطرقات ضيقة تتعرج بين الحقول. وبعد قليل، وقعت عيناي على قرية صغيرة، ضئيلة جدًا من العلو الذي كنت فيه، حتى إن منازلها بدت متلاصقة كأنها مجموعة من الصناديق القديمة.

حسنًا، في تلك اللحظة الحساسة التي حوصرت فيها، لم تكن تخيّم في رأسي إلا فكرة واحدة: أن أدفع نحو هذا الكائن المتطفل غصنًا أصفر شاحبًا على جمجته، أشطر بها كل خلية عاقلة فيه.

لكن ما إن وجّهت نظري نحوه، إذ بي أجد فتاة بشعر كريمي ناعم، وجسد يرتجّ ويرتعش مثل وشق غاضب. أظنها اعتقدت أنني شبح هارب من أقاصي الجحيم.

لم أهتم صراحة إلا بدويّ ذلك الجرح الذي خلّفته في باطن قدمي.

إنه يؤلم أكثر من ألم اصطدام إصبعك الصغير بطاولة التلفزيون. إنه يؤلم حقًا!

انتزعت السهم وأغرقته بقبلاتي الحارة، ثم وجّهته إلى الأسفل، حيث تلك المجهولة تئنّ أنين نحلة غبية.

حاولت بقدر المستطاع أن أتجاهل صوتها الأحمق، لكنه كان يحلّق فوقي وتحتي ومن كل اتجاه. أعني، لقد فهمت أخيرًا أنني لست وحشًا معلّقًا فوق الشجرة، بل إنسان شقي يبحث عن شيء لا يعرف حتى هو ما هو.

لكنني أحسست بحرارة يدها تتسلل نحوي... إنها حرارة شيطان مخيفة!

تبًّا، ما الذي تفعله؟

إنها تحدّق في عينيّ بحقد وحنق مفزعين. لم أَلُمْها على تشويه قدمي، وبالتالي، ها هي الآن تجذبني مثل كلب مسعور!

ابتعدي عني، بئسًا لكِ!

أين البرّ في هذا العالم؟ حتى مع هذا الوجه العجوز لم تحترم ألمي، وفوق ذلك، إنها تغرس أظافرها داخل لحمي!

إنها متوحشة!

لقد مرّت نصف ساعة ونحن على هذه الحال؛ أنا أرفسها بقدمي بغية أن تبتعد عن ظلّي، وهي تلتصق بي كالجراد.

وبين كل هذه الضوضاء التافهة، التقطت حواسي رائحة دخان قريبة.

هناك من نصب خيمة هنا...

نظرت إلى السماء، فإذا بها قد أظلمت.

تلك الملعونة! لقد ماطلتني عن قصد حتى رحل كل الوقت الثمين الذي كان ينبغي لي فيه أن أصل إلى تلك القرية.

تمعّنت في وجهها الأنثوي للحظة عابرة، لكنها كانت لحظة كافية لتقرير مصيرها المشؤوم في المستقبل القريب.

إنه قريب أكثر مما ينبغي.

تمالكت نفسي للحظة وجيزة، ثم فكّرت مليًّا... أطرقت في التفكير حتى كاد رأسي يُجتثّ من عمودي الفقري من شدّة التفكير.

ثم خرجت من فمي كلمة واحدة، مع تعبير قاتم:

«حقيرة».

نظرت المرأة نحوي كأنها فهمت مقصدي من ذلك الكلام، لكنها لم تستوعب تعابير وجهي الواجم.

كانت لحظة متجهّمة... مقرفة.

قالت لي بعد أن ضحكت بصوت منخفض:

«أنت مثير للريبة. من العاقل الذي يتسلق شجرة بهذا الطول، وأيضًا في هذا المكان الخطير؟ ألا تعلم أن هذه الشجرة تفصل بين حدود مكانين؟»

ثم أضافت:

«أتعلم، من المؤسف نزولك مع وجود أولئك السفاحين. إنهم يحبون اللحم الضال، لكنك في جميع الأحوال لا تصلح لأن تكون حتى دجاجة. هيّا تسلّق إلى الأعلى».

جلست فوق الغصن، وقدمي ما زالت تنزف، تقطر ألمًا ومهانة.

نظرت نحوها ببرود صامت، وقلت:

«أليس من الأجدر لك أن تعرفي عن نفسك قبل كل شيء؟ وأيضًا، من الفظيع أن تجعلي أقدام الآخرين تنزف هكذا! هل أنت ديناصور أم أن عقلك يحتوي على حبة فاصولياء؟»

همهمت بصوت مترنح، ثم قالت وهي تتناول قدمي المصابة:

«أردت أن ألفت انتباهك، لكنك أخرق تمامًا، لذلك لم يكن بيدي حيلة غير إصابة قدمك... لم أعلم أنك ضعيف لهذه الدرجة، وبالمناسبة، أنا شياو يانيان، مسافرة مثلك».

احمرّ وجهي من الغيظ.

هذه الشيطانة تملك لسان أفعى مجلجلة، لكن كلامها متزن.

لكني لم أهتم.

ففي العادة، أنا لا أهتم لمثل هذه التفاصيل، إذ إن دخولي إلى هذا العالم من الأساس أمر غير منطقي. فما الأمر الذي يستدعي الريبة والحذر من هذه المرأة يا ترى؟ فالجميع لا يختلفون عن بعضهم البعض في ارتكاب الإثم، وكلهم آثمون بطرق متعجرفة، وكأن الخطيئة أصبحت جزءًا لا يتجزأ من طبيعتهم.

لكنها بالتأكيد صينية لا محالة؛ فملامحها المتناسقة بشكل ناعم ومتماسك تشي بأنها لا تنتمي إلى هذا الزمن. كان في وجهها شيء يصعب تحديده، شيء لا يشبه الوجوه التي اعتدت رؤيتها في هذا المكان، وكأن الزمن نفسه لم يترك أثره عليها كما فعل بغيرها.

غير ذلك، فنحن الآن قبل ولادة فكتوريا بعام كامل، وأعرف هذا جيدًا من خلال هالة المكان المحيط بنا؛ فالقذارة تملأ الشوارع حتى أنحاءها، والمجاعة امتصّت أمعاء الرعية. حتى الهواء لم يكن بريئًا، فقد بدا ثقيلًا ومختلطًا بروائح لا أرغب في معرفة مصدرها، فيما كانت العتمة تتسلل بين الأشجار وتبتلع ما تبقى من ملامح الطريق.

لكن، هل عليّ أن أسألها عن هذا الأمر؟

في الحقيقة، الأمر مزعج؛ لأنني إن سألتها فسأبدو وكأنني أتطفل عليها، وعندها قد تشكّ بي، ثم تزجّني إلى أحدهم ليقتلني، أو حتى ما هو أسوأ من ذلك: أن يسلخ جلد وجهي وأنا على قيد الحياة.

يا لها من نهاية سخيفة!

لا، الأمر بالفعل لا يستحق كل هذا العناء. فقد أصاب هذا الهراء كله عقلي بالدوار، ولم أعد أملك رغبة في التفكير، فضلًا عن محاولة فهم ما يجري حولي. كل ما أريده الآن هو النوم فحسب، ولو لبضع ساعات بعيدًا عن هذا العالم الذي يبدو أنه لا يكفّ عن اختراع المصائب.

لكن فجأة، صدر من حنجرتها صوت قهقهة خفيف، كان مسترخيًا على نحو غريب، حتى إنني التفتّ إليها دون إرادة مني. ثم قالت:

«أعني، أنت تعاني هنا بسبب فضولك القاتل، فهل ستبتلعك الجحيم بسبب سؤال بسيط؟»

ازداد الظلام من حولنا، ولم يكن ذلك كافيًا لجعل الوضع أكثر غرابة فحسب، بل إن برودة الأغصان التي كانت تحتك بي بين الحين والآخر جعلت حدسي يتململ في داخلي. توقفت للحظة، ثم أطرقت النظر إليها، محاولًا أن أقرأ شيئًا في ملامحها.

أعني، ليست بذلك المكر، أليس كذلك؟

لكنني لم أجد إجابة، أو ربما لم أكن أرغب في العثور عليها أصلًا.

وقبل أن أسترسل أكثر في سرب خيالي، قاطعتني بصوت شخص يستعد لسرد قصة طويلة جدًا، وكأنها لا تنوي اختصار حرف واحد منها.

ها قد بدأنا.

ثم قالت:

«أنا مسافرة عبر الزمن. جئت من الصين، من زمن بعيد عن هذا العصر بما يكفي لأشعر أنني غريبة حتى عن السماء التي تعلو رأسي. كنت إمبراطورة لياو، في زمن أسرة لياو، قبل قرون طويلة من هذا الذي نعيشه الآن. اسمي شياو يانيان.

تزوجت الإمبراطور جينغزونغ وأنا ما زلت شابة، ولم أكن أتصور أنني سأجد نفسي يومًا أحمل عبء دولة بأكملها بعد وفاته. لكنه رحل سنة 982، وتركني أمام عرش لا يحتمل التردد، وبعد ذلك استعددت لتولي منصب نائب العرش الإمبراطوري، ويا لخيبتي.

لكن ذلك كله أصبح بعيدًا الآن... فمنذ شهرين وجدت نفسي هنا، في هذا المكان الذي لا أعرفه، ولا أعرف كيف وصلت إليه. لم أتعرف على طبيعة الزمن الذي سقطت فيه بسرعة، لكنني أدركت أمرًا واحدًا: كل حركة غبية قد تقتلني لا محالة. لذلك، كان عليّ أن أراقب الناس والطرقات، وأن أتعلم قبل أن أتصرف. تلك القرية المقابلة لهذه الحدود هي المكان الآمن، على الأقل في الوقت الحالي. ولهذا أنا هنا».

فهمت الآن.

حسنًا، بعد كل ما خضته من تجارب مجنونة، لن أستبعد فكرة أن هذه المرأة تكبرني بقرون من الزمن العتيق. فالزمن حقًا مدمّر للمنطق السليم، وأي سلامة عقلية يمكن أن تبقى بعد كل هذا الهذيان؟

سأخلد إلى كوابيسي الملوّنة، لعلني أجد داخل طرقها المتشعبة متنفسًا للمنطق، أو ربما أجد فيها عالمًا أقل جنونًا من هذا الذي أعيش فيه.

آه يا ناكازي، ما هذا الهراء اللعين؟

أعني، لقد استيقظت مجددًا، وفي ذراعي سهم آخر يطل من بين عضلاتي.

بحق الجحيم، هل تريد قتلي هذه المرأة؟

هي بالفعل أقدمت على طعني مرة أخرى، لأن عقربًا قد دسّ سمه اللذيذ في جسدي وأنا نائم!

تبا!

وأخيرًا، نزلت من الشجرة. كانت قدماي مخدّرتين، وجسدي فقد ما تبقى من عفته النفسية بسبب هذه الكريمة المتحذلقة. إنها إمبراطورة في غاية الكرم، حقًا!

تبا!

والآن، إنها تجرّني مثل الماعز!

«أيتها الإمبراطورة، لا تسحبيني مثل عذراء واهية! إنني رجل بكامل رجولته، وأستطيع المشي وحدي!»

لكنها لم تبدُ مهتمة باعتراضي، بل واصلت جرّي وكأنها تسحب كيسًا من البطاطا لا إنسانًا له كرامة، ثم توقفت فجأة ومدّت إصبعها نحو أذني.

حشرت إصبعها داخل أذني، فشعرت بألم ممزّق.

يا لها من أفعى! لقد مزّقتني!

ثم قالت، وهي تتفحّصني بنظرة لا تخلو من الاحتقار:

«أنت بالفعل قد رُسمت على جسدك النحيل هذا خريطة مذهلة من الندوب! حتى الكلب يأكل أكثر منك، ثم تتباهى برجولتك؟»

أنتِ... أنتِ أيتها العجوز الخرقاء!

من أين أتيتِ بهذا اللسان السليط؟

قالت، وشرارة السخرية تتطاير من سواد عينيها:

«من الحانات».

هل... هل ماذا؟ أي حانات؟

لحظة، حانات بريطانيا؟ كيف سمحوا لكِ بدخولها بهذه الهيئة؟

ربما اعتبروني رجلًا بسبب هذه العضلات المتينة. أستطيع حمل حصان هائج، على فكرة!

أنتِ... أنتِ...

تبا لكِ!

حسنًا، لم يسر الأمر كنكتة ثقيلة فحسب، بل تجاوز المزاح كل الحدود الدبلوماسية التي اعتقدت أنها ستجدي نفعًا في مثل هذا الوقت.

حتى وجدتني أصوّب نظري نحو بندقية ذات فوهة حالكة السواد، تستقر أمام رأسي تمامًا، ومن خلفها كانت تقف امرأة أخرى.

للحظة، تذكرت زوجتي مابيل...

ابتسمت كالمعتوه وأنا أتأمل تعابير وجهها المترنحة. إنها غاضبة جدًا... جدًا.

لقد وصلنا إلى القرية بالفعل، لكن هذا الاستقبال لم يكن متوقعًا على الإطلاق.

أعني، من النظرة الأولى إلى هذه القرية، لا يبدو أن فيها رجالًا، بل نساءً بعضلات ضخمة! انظر إلى بطنها المشدود؛ تستطيع بتلك البطن وحدها أن تسحق وجهي!

لكن، حتى الإمبراطورة لم تكن لتكفّ عن لفت الأنظار.

تقدمت بخطى لا يبدو أنها تعبث، فيما ظللت أراقب المشهد بعينين متيقظتين.

لكن البندقية لم تحرّك في داخلي المحترق إلا رغبة واحدة متقدة: أن أزيح هذا الغموض عن عقلي الثرثار.

إن وجهها مألوف، لكنها ليست بريطانية أبدًا.

أخذت أتأمل ملامحها عن قرب، متجاوزًا البندقية التي لا تزال تتوسط المسافة بيننا. كانت عيناها أول ما استوقفني؛ ثمة اختلاف لا تخطئه عين اعتادت التجوال بين تلك المناطق، ولا سيما أنني قضيت شطرًا من شبابي متنقلًا بين بلدان الشرق، أراقب وجوه الناس وأحفظ ما استطعت من ملامحهم وعاداتهم.

حسنًا... لقد أبعدت البندقية عن وجهها.

يا إلهي، إنها كورية!

أعرف تلك النظرة... إنها مدججة بالظلم والحقد.

يا إلهي!

كانت مصممة على قتلي بروح عنيدة ونظرة متمردة، كأنها صورة من صور الحرب العالمية الثانية؛ تلك الحرب التي أزهقت فيها اليابان أرواح العديد والعديد من البشر، من أجل إطفاء جوعها الذي لا ينتهي.

ثيابها تدل على أنها من هناك. شعرها مصفف بعناية، وخصلاته مرتبة على نحو لا يترك مجالًا كبيرًا للفوضى. ليست من عامة الشعب، هذا واضح. إنها امرأة راقية، تتقن تنسيق الألوان الزاهية، وقد اختارت ثيابها بعناية لا تخلو من ذوق لافت.

أما هذا الحذاء ذو الكعب المتوسط، فلا يشير إلا إلى مشهد واحد...

إنها مغنية في أحد النوادي الليلية!

يا إلهي، ما أبرعني!

إنني جيد في هذه الأمور. بل إنني أستطيع قراءة بعض تفاصيل حياة المرء من مظهره، إذا منحني الوقت الكافي لذلك.

لكن... هل ظنت أنني هنا لقتلها؟

أعني، إنها تحدق بي بمقتٍ فظيع، وعيناها لا توحيان بأقل قدر من الرغبة في التفاهم. تريد تشويه روحي وإبادتها بهذا الغضب!

أعني، حتى الإمبراطورة ألطف منها في هذه الناحية.

لكن المكان يمتلك ميزة مزعجة، ألا وهي كثافة المنحدرات.

كانت الأرض ترتفع وتهبط على نحو غير مريح، وتتوالى انحداراتها حول القرية كأنها خندق أُعدّ لأجل معركة ضارية. لم تكن الطرق مستقيمة بما يكفي لتمنح المرء رؤية واضحة، ولا كانت المساحات المفتوحة واسعة بما يسمح له بالاطمئنان إلى ما يحيط به. كل زاوية تحجب شيئًا، وكل مرتفع يبدو وكأنه يخفي خلفه أمرًا لا يرغب المرء في اكتشافه.

حتى هذا التحليل الشخصي لن يوصلني إلى عين الحقيقة.

إنها امرأة شريرة.

تبدو كذلك من أنفاسها المتبخرة في الهواء، ومن الطريقة التي تثبت بها عينيها عليّ دون أن ترمش تقريبًا.

لا... ليست شريرة، بل إنها خائفة.

وهذا أسوأ.

ذلك اللون من الحذر يشعرني بالقلق. لم يكن خوفًا عابرًا أو ارتباكًا يمكن تجاهله، بل كان حذرًا متأهبًا، كأنها تنتظر شيئًا تعرف أنه قادم، لكنها لا تعرف من أين سيأتي.

أعني، أشعر بشيء سيئ سيحدث.

رفعت بصري نحوها بحذر، محاولًا ألا أبدو أكثر ارتباكًا مما أنا عليه، ثم قلت بلهجة رصينة، على غير عادتي:

أنتِ... مسافرة أيضًا؟

لم تفهم ما قلته، أو ربما فهمت الكلمات، لكنها لم تفهم المعنى الذي أقصده.

غير أن الإمبراطورة مزّقت ذلك المشهد المتوتر بكلمة واحدة:

إهربوا!

لقد كان شكي في محله.

لقد تهاطلت قطرات العرق على شعيرات لحيتي الرثة، وشهقت بصوت مبحوح، كأنني أُشوى فوق نار متصاعدة لا تهدأ؛ بل كلما خيّم عليها الهدوء، استعرت من جديد.

اختبأت المرأة الكورية خلفي، واهتز جسدها على وقع الصوت المتفجر القادم من بين المنحدرات. كان الصوت يرتطم بالمرتفعات المحيطة بنا، ثم يعود إلينا كأنه يتضاعف في كل مرة.

بئسًا للقدر! ما هذا؟

كنت أعرف ما هذا، لكن... كيف؟

وفجأة، أمسكت تلك المرأة بثيابي، وقالت بصوت خافت لم أتبين منه سوى همسات متقطعة:

لا تتحرك... إنهم ضالّة جدد.

ما معنى هذا الكلام؟

تنهدت الإمبراطورة، وكانت يدها منقبضة من شدة الخوف، ثم قالت:

تعني أنهم لا يعرفون أنهم مسافرون. إنهم مستجدون مثلك.

لكني لست مستجدًا! أنا لا أعرف كيف يمكن لهذا أن يحدث!

لم يكن أحد يعرف ما هم.

لقد كنت الوحيد الذي يعرف.

نظرت إلى قدميّ المتورمتين من طول المسير الذي لم ينتهِ إلا عند هذا المكان، ثم استدرت نحوهما وقلت بنبرة لم أجد فيها متسعًا للمزاح:

إياكما والتوقف!

إهربا الآن!

اندفعت راكضًا دون أن ألتفت، ولم أمهل نفسي حتى لأرمش. لكنهما لم تهربا، بل ظلّتا متشبثتين بمكانيهما، كأن أقدامهما قد تجمدت في الأرض.

الغبيتان!

سوف تموتان! إنهم هنود حمر!

حتى وإن كانت وجوههم لا تُبدي العداء، فهم بدائيون، وسيقتلون كي يعيشوا! تبا!

لم أجد أمامي خيارًا آخر. عدت إليهما مسرعًا، وتناولت أيديهما، ثم ركضت بهما.

احتشد الجمع في مكانه، وخيّم حولهم صمت مريب، حتى وأنا أركض برعب مميت، كنت أدير رأسي بين الحين والآخر، عاجزًا عن تخيّل ما سيحدث بعد ذلك.

وعندما شارفنا على الوصول إلى أول منزل في القرية، لمحت سايكي وناناشي.

تبا!

ماذا...؟

لم أستطع استيعاب ما رأته عيناي في اللحظة الأولى، وكأن المشهد قرر أن يلقي بكل مفاجآته في وجهي دفعة واحدة.

حينها أطلقت المرأة الكورية صرخة صاعقة، أفزعت البيوت وأيقظت ما كان مختبئًا خلف أبوابها. وما هي إلا لحظات حتى خرجت من بين المنازل نسوة بأوشحة حريرية، أخذت أطرافها تتطاير في الهواء مع حركتهن، مخلفة لمعانًا أنيقًا كلما لامسها الضوء.

كنت أعصر ذراعي المرأتين بقوة، مندهشًا من كل هذه الأشياء التي اصطدمت بعيني في وقت واحد. لم أعد أعرف إلى أين أنظر، ولا أيّ مفاجأة ينبغي لي أن أستوعب أولًا.

وفجأة، تعالى صوت الحوافر، كأنه زمجرة شيطانية تشق سكون المكان. أخذ يقترب بسرعة، حتى اختلط صخبه بأصوات الحركة والاضطراب، ثم تداعى من بينه صوت رجل أكثر رعونة، كان يأمر رجاله بأن يطوّقوا المكان بأجساد أحصنتهم وسهامهم المدببة.

توقف الجميع عن الركض.